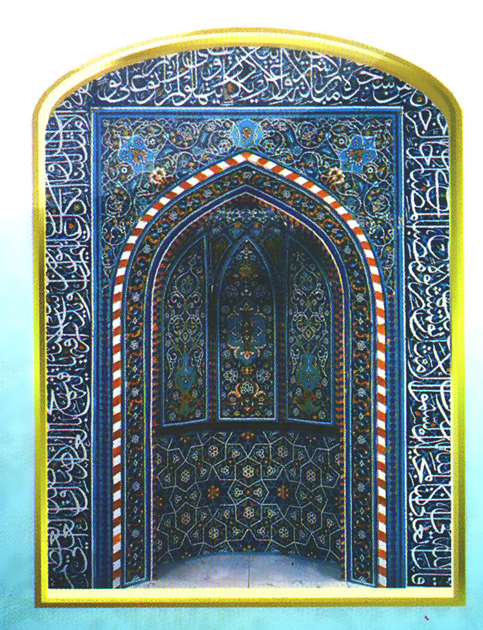
أحاديث المحراب





أَحمدُ قنْعانُ السُكّرِيّ
جَاسِمُ بْنُ مُحَمّدِ بنِ المُهَلْهَلِ الْيَاسِينِ

أحاديث المحراب

جاسم بن محمد بن المهلهل الياسين



الطبعة الثانية
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

بطاقة الكتاب

اسم الكتاب : أحاديث المحراب
تأليف : جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين
الناشر : شركة السماحة للنشر والتوزيع الكويت
الصف والإخراج : مركز بدور للثقافة والترجمة
عدد الصفحات :
عدد الملازم :
مقاس الكتاب : ١٧× ٢٤
رقم الإيداع : ٢٠١٠/٢٣١٢٣

شركة السماحة للطباعة والنشر
والتوزيع ـ الكويت
ت/٩٩٥٥٧٤٧١
الرمز البريدي : ٤٣٧٥٦
ص. ب : ٦٦٥٢٠ بيان

أحاديث المحراب

تأليف

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين
أحمد قنعان السكرى

مؤسسة السماحة
شروق للنشر والتوزيع

الطبعة الثانية

١٤٣٣ هـ ـ ٢٠١٢ م

تطلب مؤلفات الشيخ الدكتور

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

في الكويت من: شركة السماحة ـ الكويت.

ت/ ٩٩٥٥٧٤٧١

الرمز البريدي : ٤٣٧٥٦

ص. ب : ٦٦٥٢٠ بيان

في مصر من: شروق للنشر والتوزيع



الإهْدَاءُ نثْرًا

إِلَى **وَالِدَتِي** مُنِيرَةَ، الَّتِي لَهَا مِن اسْمِهَا نَصِيبٌ، فَقَدْ أَنَارَتْ لِي طَرِيقَ حَيَاتِي، فَعَرَفْتُ رَبِّي، وَسَلَكْتُ مَنْهَجَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ.

إِلَى وَالِدَتِي الَّتِي أَرْضَعَتْنِي مَعَانِيَ الخَيْرِ كُلَّهَا، فَكَانَتْ مَدْرَسَةً فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَهِيَ الَّتِي عَلَّمَتْنِي كَيْفَ يَكُونُ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَعَلَّمَتْنِي الإِحْسَانَ إِلَى الآخَرِينَ وإِنْ أَسَاؤُوا، وأَرْضَعَتْنِي مَعَانِيَ الصَّبْرِ الَّتِي قَرَأْنَا فِي المجَلَّدَاتِ وَكَتَبْنَاهَا. لَقَدْ عَلَّمَتْنِي مَعْنَى الإِنْفَاقِ مِمَّا كَانَ فِي يَدِهَا لِتُدْخِلَ بِهِ السُّرُورَ عَلَى الآخَرِينَ.

إِلَى وَالِدَتِي الَّتِي لَمْ تَعْرِفِ الشَّكْوَى فِي حَيَاتِهَا، وَلَمْ تَئِنَّ مَعَ كَثْرَةِ أَمْرَاضِهَا.

إِلَى وَالِدَتِي الَّتِي كُنَّا قَبْلَ وَفَاتِهَا - رَحِمَهَا اللهُ - بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ، وَإِنِّي لأَذْكُرُ قَوْلَ أَحَدِ الأَصْدِقَاءِ عَنْ أُمِّهِ بَعْدَ وَفَاتِهَا: لَقَدْ ذَهَبَتْ مَنْ كُنَّا بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ. وَإِنِّي لأَقُولُ: لَئِنْ تَنَعَّمْتُ بِدُعَاءِ أُمِّي فِي حَيَاتِهَا، فَإِنِّي أَتَنَعَّمُ بالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَكُلَّمَا ازْدَدْتُ لَهَا دُعَاءً، ازْدَادَتْ نَفْسِي إِحْسَاساً بِالنَّعِيمِ، فَقَدْ كُنْتُ أَتَنَعَّمُ بِدُعَائِهَا فِي حَيَاتِهَا وَأَتَنَعَّمُ بِالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَفِي الحَالَتَيْنِ، فَإِنِّي أَتَنَعَّمُ بِخَيْرِهَا فِي الحَيَاةِ وَالمَمَاتِ.

وَلَسْتُ أَعْرِفُ لإِنْسَانٍ فَضْلاً عَلَيَّ - فِيمَا أَنْعَمُ بِهِ مِنْ فَضْلٍ - خَيْراً يُعَادِلُ أَوْ يُقَارِبُ فَضْلَ وَالِدَتِي - رَحِمَهَا اللهُ تَعَالَى. وَأَسْأَلُ اللهَ - سُبْحَانَهُ - أَنْ يَسْتَجِيبَ دُعَاءَهَا لِي، وَيَسْتَجِيبَ دُعَائِي لَهَا.

لَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْهَا الصَّبْرَ وَالتَّجَلُّدَ؛ فَقَدْ شَطَبَتْ مِنْ حَيَاتِهَا مَا يُسَمَّى بِالإِيذَاءِ، فَكَانَتْ لاَ تُؤْذِي أَحَداً وَلا شَيْئاً، حَتَّى الأَرْضَ الَّتِي كَانَتْ تَمْشِي عَلَيْهَا، عَلَّمَتْنِي مَعَانِيَ كَثِيرَةً، قَدَّمَتْهَا وَهِيَ تُضَحِّي بِصِحَّتِهَا وَوَقْتِهَا وَسَعَادَتِهَا.

إِلَى وَالِدَتِي الَّتِي أَعْرِفُ مِنْ مَدْرَسَتِهَا الْكَثِيرَ، وَلاَ يَسَعُنِي ذِكْرُهُ فِي هَذَا الإِهْدَاءِ، وَسَأُفْرِدُ لَهُ رِسَالَةً خَاصَّةً، إِنْ شَاءَ اللهُ.

إِلَى وَالِدَتِي أَهْدِي ثَوَابَ هَذِهِ الرَّسَائِلِ، لَعَلِّي أُؤَدِّي زَفْرَةً مِنْ زَفرَاتِهَا فِي وِلادَتِي.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَى وَالِدِي – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَى رَفِيقَةَ الدَّرْبِ أُمّ مُعَاذٍ، الَّتِي كَانَتْ لِي عَوْناً فِي صَبْرِهَا عَلَى سَهَرِي وَسَفَرِي.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَى أَوْلادِي جَمِيعاً، ذُكُوراً وَإِنَاثاً.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَى كُلّ مَنْ أَسْهَمَ فِي إِخْرَاجِهَا، وَجَعَلَهَا بَيْنَ يَدَي النَّاسِ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.

وَإِنَّنِي إِذْ أَكْتُبُ هَذَا الإِهْدَاءَ، أَرْجُو مِنْ إِخْوَانِي الَّذِينَ يَكُونُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ هَذَا الْكِتَابُ أَلاَّ يَنْسُونَا جَمِيعاً مِنْ صَالِحِ دُعَائِهِمْ.

❊ ❊ ❊

الإهْدَاءُ شِعْرًا

أَمَّـــاهُ كُنْـــتِ مُنِيـــرَةً وَمَنَـــارَةً عُلْيَـــا وَصَـــرْحاً ثابـتَ الأَرْكَـــانِ

قَـــدْ كُنْـتِ مَدْرَسَـةً تُعِـدُّ نُفُوسَنَـا لِـــصَنَائِعِ المَعْـــرُوفِ وَالإِحْـسَانِ

قَـــدْ كُنْـتِ لِلأَيْتَـــامِ أُمَّـــاً بَـــرَّةً وَالجَـــارِ وَالمِـسْكِينِ أَرْأَفَ حَـــانِ

أَرْضَـعْتِنَا الأَخْـلاق شَـهْدَاً سَلْـسَلاً تَـــدْنُو ثِمَـــارُ قُطُوفِهَـــا لِلْجَـــانِي

عَلَّمْتِنَـــا الـــصَّبْرَ الجَـمِيلَ خَـلِيقَةً وَالقَوْلَ لِلحُسْنَى وَكَفَّ لِسَانِ

* * *

أَبَتَـــاهُ قَـــدْ رَبَّيْتَنِـــي وَأَحَـــطْتَنِي بِرِعَـايَـــةٍ فِـــي غِبْطَـــةٍ وَأَمَـــانِ

وَفَّـــرْتَ أَسْـبَابَ الـسَّعَـادَةِ وَالهَنَـا فَجَعَلْتَنِي أَسْمُو عَلَى الأَقْرَانِ

فَجَـزَاكَ رَبُّ العَـرْشِ خَـيْرَ جَزَائِـهِ وَأُسْـــكِنْتَ فِي رَوْحٍ وَفِي رَيْحَـــانِ

* * *

نَوَّرْتَ **يَا بَدْرَ** الدُّجَا سُبُلَ العُلا بِالفَـــضْـلِ لاَ فَـــظٍّ وَلاَ مَنَّـــانِ

كَـــمْ ذَا تُقَابِــلُ بِالــسُّـرورِ تَـدَلُّلِي بِمَحَبَّـــةٍ وَبِرَأْفَـــةٍ وَحَنَـــانِ

أَحْبَبْتَنِـــي قَـرَّبْتَنِـــي رَبَّيْتَنِـــي بِالعِـــزِّ فِي ثِقَـــةٍ وَفِـــي اطْمِئْنَـــانِ

* * *

أَرَفِيقَتِـــي كُنْـتِ الـشُّعَاعَ إِذا دَجَـا لَيْـلُ الحَيَـاةِ بِمُظْـلِمِ الحِـدْثَانِ

قَـدْ كُنْـتِ خَـيْرَ شَرِيكَـةٍ وَمُعِينَـةٍ فِي الـــبِرِّ عِنْـــدَ تَقَـاعُسِ الأَعْـــوَانِ

الــصَّبْرُ فِيــكِ مَـعَ الوَفَــاءِ سَـجِيَّةٌ بِتَعَـاقُبِ الأَفْـرَاحِ وَالأَحْـزَانِ

* * *

يَـــا حَبَّـــذَا **أَفْـــلاذ أَكْبَـــادٍ** بِهَـــا كَـــمُلَ المُـــرَادُ وَقَـــرَّتِ العَيْنَـــانِ

فَاحْفَظْ **مُعَاذاً** وَاحْفَظَنَّ **مُهَلْهِلاً** ... أَمَدَ الزَّمَانِ **وَعَابِدَ الرَّحْمَنِ**

لاَ زَالَ **عَبْدُ اللهِ** فِي حِفْظٍ وَلاَ ... زَالُوا جَمِيعاً غُرَّةَ الفِتْيَانِ

وَلْتَحْظَ **عَائِشَةٌ وَفَاطِمَةٌ** بِمَا ... قَدْ شَاءَتَا مِنْ بُغْيَةٍ وَأَمَانِ

وَاحْفَظْ **هَيَا وَمُنِيرَةً** يَا رَبَّنَا ... مِنْ مُبْطِنِ البَغْضَاءِ وَالشَّنَآنِ

* * *

يَا رَبِّ لاَ زَالَ الجَمِيعُ بِنِعْمَةٍ ... وَقِهِمْ شُرُورَ الحَاسِدِ المِعْيَانِ

صَلَّى الإِلَهُ عَلَى **النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ** ... وَالآلِ وَالأَصْحَابِ كُلَّ أَوَانِ

الشيخ الدكتور

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

* * *

تقديـــم

الحمد لله واهب النعم، ورافع النقم، المعطي الواهب، الخافض الرافع، القابض الباسط، الذي خلق العباد، ودلهم على سبيل الرشاد، وهدى إليه من أحبه، وحرَّم الهداية إليه عمن عمي عنه، وأصلي على رسوله الخاتم ﷺ، الذي نوَّر البصائر بنور الهداية، وحرَّر العباد من الظلم والطغيان، وأصلي على صحبه الأبرار، وآله الأطهار.. وبعد:

فقد اطلعتُ على هذا الكتاب المعنون له بـ«أحاديث المحراب»، فرأيته ضم اثنين وعشرين درسًا نافعًا، وقد وُفِّقَ مُعِدَّاها في اختيار موضوعاتها، وأجادا في صياغتها، فجاءت مشرقة العبارة، جيدة السبك، واضحة الدلالة على المعاني المرادة، مدعمة بالاستشهاد بالنصوص، مرصعة بالأخبار والطرائف المنتقاة.

أسأل الله تعالى أن ينفع بها عباده، وأن يجعلها ذخرًا لكاتبيها في يوم القيامة، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

عمر سليمان الأشقر

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين محمد ﷺ.

وبعد..

فهذه سلسلة من الأحاديث نرجو أن تتابع حلقاتها، لتظهر ـ بصورتها هذه ـ إلى حيز الوجود، فتعمل ما نأمل فيه من خير للمسلمين، يدفعه الحب لهم، والحرص عليهم، والأخوَّة في دين الله بيننا وبينهم، وآثرنا أن نسميها: «أحاديث المحراب» لما كان في المحراب من بشرى غيَّرت واقعًا ما كان يظن أحد أن يتغير ولا أن يتبدل؛ إذ كان الواقع يدل على عجز تام من كل وجه من الوجوه، عبرت عنه آيات القرآن الكريم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥﴾ [1].

والواقع الذي أحاط بزكريا عليه السلام، كان واقعًا أليمًا يدعو إلى اليأس والقنوط، فقد وهن عظمه، وشابت رأسه، وعقمت زوجه، فمن أين له بالولد؟

ولكنه ـ وهو النبي المرسل ـ لا يعرف القنوط، بل يعرف الأمل، ويعرف أن الله لا يتخلى عن الصالحين، فدعا الله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩﴾ [2].

فجاءته الملائكة وهو في محرابه يصلي بالبشرى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٣٩﴾ [3].

وواقع المسلمين ـ اليوم ـ بين الأمم، فيه ضَعْفٌ بَيِّن، وعجزٌ واضح، وتأخر ملموس في كثير من جوانب الحياة، وهذه الأشياء لا تدعونا إلى اليأس والقنوط من الإصلاح والصلاح؛ فالأمل الكبير أن يتغلب المسلمون على معوقات واقعهم ـ بعون الله وتأييده ـ حينما يرجعون إلى ربهم، متمسكين بدينهم، مدركين أنه دينٌ شامل، يشمل كل جوانب الحياة، وييسر للإنسان كل وسائل النجاة، وبداية الطريق من

---

(١) مريم: ٤، ٥.
(٢) الأنبياء: ٨٩.
(٣) آل عمران: ٣٩.

المسجد، الذي لا يُدعى فيه مع الله غيره، ولا ننسى أن زكريا إنما كان قائمًا يصلي في المحراب حين جاءته البشرى، وعلى المسلمين أن يركنوا إلى ربهم؛ ليتغير واقعهم، وأن يكون المسجد بداية انطلاقهم، ونأمل أن تكون هذه الأحاديث ــ مع غيرها مما تخرجه المطابع للكُتَّاب المسلمين ـ بشرى يتغير بها واقع المسلمين، وتسكن لها أنفسهم، وأن تكون معينًا لهم على التوجه إلى الله، والفرار إليه، والرجوع إلى دينه، والتمسك بكتابه، وسنة رسوله، فيتغير حالهم، ويبدو ـ بين الأمم ـ صلاحهم.

وهذا الكتاب أحببنا أن نتحدث فيه عن بعض جوانب الإسلام، نُذكِّر بها، ونبين معالمها وطريقها، فقد يظن بعض المسلمين أن مثل هذه الأمور لا صلة للإسلام بها، فما للإسلام والوقت؟ وما للإسلام والأناة؟ وما للإسلام والجرائم المعاصرة المتغلغلة حتى بين المسلمين أنفسهم؟

والإسلام دينٌ شامل، وقد جُلْنَا في بساتينه، فأخذنا من كل بستان زهرة، ومن كل روضة ثمرة، لنقدمها لإخواننا المسلمين ينتفعون بها وينفعون.

وراعينا فيها أن تكون وسطًا في كل شيء..

فهي وسط بين الطول والقصر، وما طال منها قسمناه، ليسهل على القارئين أو السامعين.

وهي وسط في طريقة التناول، فليس فيها العمق المركّز، الذي لا يقوى عليه إلا الخاصة، وليس فيها التبسيط والتسطيح، الذي لا يليق بكتابة دينية جادة.

وهي كذلك وسط في لغتها، يستطيع أن يفهمها كل الناس، وإن لم تخل من كلمات قد تكون على البعض جديدة، ولكنها ليست غريبة، فإن لغة القرآن تشدنا ولو قدمنا منها في كل كتاب أو مقال بضع كلمات جديدة لأحيينا منها ما انطمس، وما توارى في بطون الكتب، فظهر على اللسان، وانتشر بين الأنام.

وقد قسمناها إلى دروس ، كل درس فيها لا يزيد في قراءته على خمس عشرة دقيقة تقريبًا؛ ليستطيع إمام المسجد أن يقرأها على المصلين في رمضان أو غيره، ويستطيع المربي أن يقرأ منها لدقائق معدودة على تلاميذه في الفصل، ويستطيع الأب في جلسة قصيرة

مع أبنائه أن يقرأ منها، ويوضح بعض جوانب الإسلام فيها لبنيه، وتستطيع الأم أن تستعين بها في تربية أبنائها، وتنشئهم على الجد، ومعالي الأمور، والبعد عن السفاسف والمفاسد، ويستطيع صاحب الديوانية أن يقرأ منها على إخوانه وزائريه.

وأخيرًا .. فإن دورنا يقتصر على إعداد هذه الدروس وصياغتها، وعرضها على المسلمين، راجين من الله أن ينفع بعملنا ، وأن يحبب إلينا الإيمان، وأن يحقق أملنا في يقظة إسلامية شاملة، تعيد مجد الإسلام، وتعلي راية المسلمين.

المعِدان

(١)

في منهج الله النجاة

في عمارة الأرض عبادة :

يسعى الناس في الأرض، ويمشون في مناكبها؛ ليحققوا لأنفسهم مما رزقهم الله ما به يحفظون حياتهم ، ويعمرون الكون، كما أمر الله بالطريقة التي بها أمر، ويعلمون أو يعلم المسلمون منهم ـ على الأصح ـ أن هناك غاية أسمى وأعلى من تحقيق الطعام والشراب وعمارة الكون، تلك هي عبادة الله وحده بغير شريك ولاندّ ولا نظير.

والمسلمون وهم يسعون جادين لتحقيق هذه الغاية ـ عبادة الله وحده ـ يدركون أن مطالب الجسد وعمارة الأرض هي جزء من هذه العبادة إن صلحت النيات، وهي في نفس الوقت وسيلة مؤدية إلى هذه الغاية، لا تتم الغاية (العبادة الخالصة لله) بدونها، وربما لا تتحقق أصلاً، وقد ثبت أن الرسول ﷺ استعاذ بالله من الفقر والجوع لما لهما من تأثير ضار مؤثر على تحقيق هذه الغاية على النحو الأمثل.

والمسلم يفهم ذلك حق الفهم، فلا يجعل مطالب الجسد ـ وحدها ـ غايته، ولا يجعل كل همه دنياه، ولذا فهو يأخذ من الطيبات التي أحلها الله بغير إسراف ولا تقتير، ويعيش في توسط واعتدال بغير إفراط ولا تفريط، ويتحكم في مطالب جسده، فلا يكون عبدًا للشهوات، ولا تابعًا للهوى والشبهات؛ ولذا فالمؤمن وهو يقدم لنفسه ولبدنه قوام الحياة من الطيبات، يتحرى كل التحري ألا يقع في الحرمات، فهو يمسك أمر نفسه بيده ولا يطلق العنان للشهوات، ويجعل جسده منقادًا لأوامر الله لا قائدًا، ومطيعًا لتعاليم الدين لا مُطاعًا، ومحبًا للطيبات، لاطالبًا للشهوات، وإلا فمن العار أن نكون عبيدًا للذات الجسد، واقفين حياتنا على الماديات و«إن كان من القبيح إذا ركبنا الخيل ألا نكون نُدْبرها ونُجْريها، ولكن هي التي تدبرنا وتجرينا، فأقبح من ذلك أن يكون هذا البدن الذي لبسناه هو الذي يجري بنا، ويدبرنا لا نحن ندبره»[١] .

منهج الله يحقق السعادة :

---

(١) البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيدي (١/ ٥٧ ، ٥٨).

وإذا كان المقصود ألا تشغلنا مطالب الجسد عن أشواق الروح ومطالبها في التطلع إلى عبادة الله وحده، وفي التوجه نحو اليوم الآخر، فإن من اللازم الذي لا نتجاوز مقالنا من غير أن ننبه إليه ألا يكون إهمال الجسد مطلبًا لنا، بل في الطيبات مما أحل الله ما يسع مطالب الجسد وأشواق الروح؛ إن أخذ المسلمون أنفسهم بمنهج الله، ولم يجعلوا مناهج البشر غايتهم وغرضهم ووسيلتهم لصنع الحياة، ولن تستقيم الحياة ويسعد فيها الناس بالرزق والأمن إلا بمنهج الله، وكفى أن مناهج البشر فيها قصورهم وضعفهم وعجزهم، يتفلسف الفلاسفة ويتشدق من يدَّعي الحكمة والمعرفة، وهو لا يعرف شيئًا من نفسه ولا أطوار خلقته ولا ما ينتظره بعد موته، فضلاً عن أن يعرف شيئًا بعيدًا عنه، وقد صُوِّر ذلك بصورة تجعل المتشدقين بالحكمة يخرسون، والسائرين على مناهج البشر يتوقفون:

قل لمن يفهم عني ما أقول: قصر القولُ، فذا شرحٌ يطول
أنتَ أكلُ الخُبزِ لا تَعْرِفُهُ كيف يجري منك؟ أم كيف تبول؟!

وصدق الله: ﴿يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [(١)].

وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [(٢)].

وصدق الله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [(٣)].

فأين نحنُ من منهج الله ؟

---

(١) النساء: ٢٧، ٢٨.
(٢) النور: ١٩.
(٣) المُلك: ١٤.

(٢)
الدعوة هي المطلب الأول للعاملين

التعلق بالآخـرة :

تتشعب مسالك الحياة وأوديتها، ويتشعب كذلك الناس ويختلفون تبعًا لمسارهم فيها، وسلوكهم سبلها، واعتبارها عند الكثيرين من البشر غاية يظنون كل الظن أن لا حياة وراءها، ولا بعث ولا نشور عقبها، وهؤلاء يعيشون لدنياهم، ولا يتركون فرصة لشهوة أو لذة إلا اغتنموها، وأصابوا منها بقدر طاقتهم، وقد أرسل رب العالمين الرسل مبشرين ومنذرين ليبلغوا للناس هديه، وينشروا في الأرجاء نوره ومنهجه، حتى لا تضل البشرية في بيداء الحياة وصحرائها، وحتى لا تفتك بهم أهواء النفس وشهواتها.

وقد بصَّر الأنبياء والسائرون على منهجهم ــ من الدعاة والعلماء ــ بصروا الناس باليوم الآخر وما فيه، وأرشدوهم إلى طريق الفلاح والفوز والنجاة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، وبيَّنوا لهم أن على المرء ألا يغفل لحظة عن مصيره في الآخرة حتى يظل ثابت القدم على الدين، لا تتنازعه الأهواء فيضل ويكون من الهالكين.

وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه : «من جعل الهموم همّا واحدًا[١] هم المعاد كفاه الله همّ دنياه، ومن تشعبت به الهموم[٢] في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك»[٣].

والناس الذين يوجّهون عنايتهم للآخرة، ويسعون لها سعيها، ولا يشغلون أنفسهم بما فاتهم من أمر الدنيا، فرضا الله غايتهم، وإقامة شرعهم هدفهم، هؤلاء يجدون في القلب اطمئنانًا، وفي الحياة راحة، ويقنعون بما رزقهم الله، ويسعدون بما يدخرونه عنده وهو باق لا يفنى ولا ينفد، وهم في سبيل ذلك لا يدخرون وسعًا في الدعوة إلى دين الله، وتحقيق ما أمر به، لا ينحرفون عن هذا الصراط، ولا يبتعدون ولا يحيدون؛ لأنهم

---

(١) أي: من كان له همومٌ متعددة فتركها وجعل موضعها الهم الواحد (هم الآخرة).

(٢) أي: تفرقت فيه الهموم، أو فرقته الهموم .

(٣) أخرجه ابن ماجة (٤١٠٦)، وحسنه الألباني .

يعلمون عاقبة الانحراف عن الدين، وهي الخزي المكين، والعذاب الأليم، ثم لا يكون في النهاية إلا ما قدّره الله لهم من أمر الدنيا التي شغلتهم عن دينهم وهدي نبيهم، وتعاليم ربهم.

وفي الحديث الصحيح عن زيد بن ثابت قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كانت الدنيا همه، فَرَّقَ الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِبَ له، ومن كانت الآخرة نيته، جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة[(١)]»[(٢)].

العبودية لله وحده:

ولن يسعد الناس في الآخرة ويطمئنوا في الدنيا إلا إذا عاشوا عبيدًا لله لا لسواه، وعرفوا قدره وحقه فاتجهوا إليه بالعبادة والطاعة، ولم يطيعوا أحدًا من البشر إلا بما أمر الله، وتخلوا عن كل مظهر من مظاهر الخضوع لغير الله سبحانه، فلم يخضعوا لبشر ولا حجر ولا شجر ولا بقر، ولا غير ذلك من مظاهر الخضوع التي يقوم بها كثير من الناس حيث يؤلهون غير الله، ويأتمرون بغير ما أمر، ويعبدون ما لا يستحق عبادة ولا طاعة، وقد بيّن ذلك رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح أن يسجد بشر لبشر لأَمَرْتُ المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها، والذي نفسي بيده لو أن من قدمه إلى مفرق رأسه قرحة تنجس بالقيح والصديد ثم أقبلت تلحسه، ما أدّت حقه»[(٣)].

فلابد إذًا من بيان المنهج حتى لا يلتبس الحق بالباطل، ويُعبد مع الله غيره؛ فيضل كثير من الناس.

---

(١) راغمة: منقادة مكرهة ذليلة، والحاصل أن ما كُتِبَ للعبد من الرزق يأتيه لا محالة، إلا أنه من طلب الآخرة يأتيه بلا تعب، ومن طلب الدنيا يأتيه وشدة.

(٢) أخرجه ابن ماجة (٤١٠٥)، وقال البوصيري في الزوائد: «إسناده صحيح، ورجاله ثقات»، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٨، ١٥٩)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٦٣)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب: «رواه أحمد والنسائي بإسناد جيد، رواته ثقات مشهورون، والبزار بنحوه»، وقال الألباني في صحيح الجامع (٧٧٢٥): «صحيح».

أمانة يحملها الدعـاة :

وهذا واجب الدعاة في كل عـصر، علـيهم أن يـصدعوا بـالحق، وأن يـشغلوا أنفـسهم بالدعوة إلى الله، ولن تثمر شجرة الدعوة ثمرتها ، وتؤتي أكلها ما لم يكن الدعاة عـارفين بواجبهم، فـاهمين طبيعـة عـصرهم، ملمـين بمـشاكل بيئـتهم، مـدركين لطبـائع النفـوس وغرائز البشر، مختلطين بالنـاس، صـابرين عـلى مـا يمـسّهم مـن البأسـاء والـضراء، ولـن يكون بغير ذلك للدعوة غناء وكأنما كان أبو أيوب السختياني يعني ذلك كلـه فـيما حكـاه عنه حماد بن زيد قال: قال لنا أيوب : «إنك لن تبصر خطـأ معلمـك حتـى تجـالس غـيره، جالس الناس».

فما هو الطريق قد بانت معالمه، وظهرت حدوده، فأين السالكون؟ وأين السائرون؟

لابد من الاختلاط بالناس، والعمل عـلى إخـراجهم مـن الظلـمات إلى النـور، لينـالوا حظهم من الدين، فليس دين الله قـاصرًا عـلى قـوم مـن الأقـوام، أو فئـة مـن الفئـات، أو طائفة مـن الطوائـف، أو جنسية مـن الجنسيات، إنـه لكـل النـاس أجمعـين، بعـث الله بـه رسوله محمدًا ﷺ للعالمين، والدعاة يحملون هذا الميراث، ميراث النبوة، ولا يتم أداؤهـم للأمانة التي حملوهـا إلا بتوصـيل هـذا الـدين وإبلاغـه للنـاس، ليخرجـوا مـن الظـلمات، ويبتعدوا عن الضلالات، ويستظلوا براية الدين، التي بها تستقيم الحياة، وينـصلح حـال الناس أجمعين.

فهل قام العاملون في حقل الدعوة بالأمانـة؟ وماذا ينتظرون ؟

(٣)
الجهـاد في سـبيل اللـه ـــ ١

ذروة سنـام الإسلام :

الجهاد في سبيل الله عبادة عظيمة، نسيها كثير من المسلمين، وغفلوا عنها، مع أنها ذروة سنام الإسلام، وقمة التكاليف فيه، ولذا كان أجر المجاهدين عند الله عظيمًا، ومثوبتهم كبيرة، ولا أدل على ذلك من قول الرسول ﷺ فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه : «مَثَلُ المُجاهد في سبيل الله ـ والله أعلم بمن يجاهد في سبيله ـ كمثل الصائم القائم، وتوكل الله (تعهد وضمن) للمجاهد في سبيله أن يتوفاه، وأن يدخله الجنة، أو يرجعه سالمًا مع أجرٍ وغنيمة»[1] .

والذين يُقْتَلُون في سبيل الله، ليسوا موتى ـ كما أخبر الله ـ بل هم أحياءٌ عند ربهم يُرْزَقُون: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾[2] .

وهذا الفضل من الله والأجر لا يتحقق لأي مؤمن آخر، مهما قام بكثير من التكاليف، وأدّى كثيرًا من الطاعات تطوعًا منه ابتغاء مرضاة الله ، فإنه تظل درجته دون درجة المجاهدين ، ودون درجة الشهداء المخلصين.

سلفنا أحسنوا صناعة الموت :

وقد كان الجيل الذي رباه رسول الله ﷺ يتحين فرص المناسبات الجهادية، وينتظرها؛ ليبادر ويسارع بالاشتراك فيها طمعًا في شهادة يظل بها حيًا عند الله، أو رجوع بأجرٍ وغنيمة، ونصرٍ وكرامة :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[3] .

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٨٧)، ومسلم (١٨٧٦).
(٢) آل عمران : ١٦٩، ١٧٠ .
(٣) التوبة : ٥٢ .

وهذا عمرو بن الجموح كان له أربعة أبناء شباب يغزون مع رسول الله ﷺ، وكان أعرج شديد العرج، وأراد أن يخرج مع الرسول ﷺ في غزوة أُحد، فقال له بنوه: إن الله قد جعل لك رخصة، فلو قعدتَ ونحنُ نكفيك، وقد وضع الله عنك الجهاد.

فأتى عمرو رسول الله ﷺ فقال: «إن بنيَّ هؤلاء يمنعوني أن أجاهد معك، ووالله إني لأرجو أن أُستشهد فأطأ بعرجتي هذه في الجنة».

فقال له رسول الله ﷺ: «أما أنتَ فقد وضع الله عنك الجهاد».

وقال لبنيه: «وما عليكم أن تدعوه، لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة؟».

فخرج مع رسول الله ﷺ فَقُتِلَ يوم أحد شهيدًا[١].

هكذا كان الجيل الأول يُحسن صناعة الموت، ويدرك عظمة الأجر، ويعلم أن ما عند الله خيرٌ وأبقى من غنيمة أو غيرها مما في الحياة، فما بال المسلمين اليوم لا يقتدون بأسلافهم؟ ويموت أحدهم على فراشه كما يموت البعير، فلا نامت أعينُ الجُبناء.

لقد كان هذا الأجر العظيم للمجاهدين في حسن الصحابة ووجدانهم، يفضلون أن يحققوه وهم يعلمون أنه خيرٌ لهم من كثير من العبادات، وهذا أبو هريرة رضي الله عنه يقول: «رباط يومٍ وليلة في سبيل الله خيرٌ من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود في بيت الله الحرام»[٢].

فقيام ليلة القدر التي هي خيرٌ من ألف شهر، في بيت الله الحرام بجوار الحجر الأسود يعلو ثوابها رباط يومٍ وليلة في سبيل الله.

وعجبتُ من مسلمين يفرطون، بل إن شئت فقل: يضيعون هذه العبادة على عظم أجرها، وجليل ثوابها!

لا عائق أمام المجاهدين:

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٢٤٦)، وقال الألباني في تعليقه على فقه السيرة (٢٨١): «رواه ابن هشام (٢/ ١٣٩)، عن ابن إسحاق قال: وحدثني أبي إسحاق بن يسار عن أشياخ من بني سلمة به، وهذا سند حسن إن كان الأشياخ من الصحابة، وإلا فهو مرسل».

(٢) أخرجه ابن حبان (٤٦٠٣)، وقال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح».

وقد يرى بعض المسلمين ـ اليوم ـ أن له في الابتعاد عن الجهاد عذرًا مقبولاً عند رب العباد؛ لأن الجهاد ليس عبادة فردية كغيرها من العبادات، وإنما هو عبادة جماعية، تستلزم إمامًا يستنفر، وسلاحًا يتوفر، وأرضًا يطمئن المجاهدون فيها ألا يُطعنوا من خلفهم، وألا يُؤتوا من قِبَلِ إخوانهم، وغير ذلك مما يجب أن يتحقق ليتم الجهاد، ويكون القتال والجلاد.

ولكنا نقول ونعلن : إن فضل الله ـ على المؤمن ـ عظيم ؛ إذ مكن له أن يقوم بعبادة الجهاد، وإن كان منفردًا، فهو يستطيع أن يجاهد بماله، وأن يخلف الغزاة المجاهدين، في أهليهم وشؤونهم ورعاية مصالحهم، فيكون له أجر وثواب لاشتراكه في عبادة الجهاد.
والناظر في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ يجد أن باب الجهاد أعظم من أن يوصد في وجه الأفراد، حتى وإن تخلت عنه دول وجماعات، وتخلف عنه أناس وقيادات؛ إذ الجهاد في الإسلام يتم بالنفوس المجاهدة، والأموال التي تحقق ما لا غنى عنه للمجاهدين : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾[(١)].

وفي تأملنا لآية الإعذار، التي رفع الله فيها الحرج عن المؤمنين نجد نوعي الجهاد: الجهاد البدني، والجهاد المالي واضحين بجلاء، لا لبس فيه ولا غموض، يقول الله ـ سبحانه ـ فيها: ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩١﴾ ﴾[(٢)].

فقد جعل الله ما يعوق البدن من مرض أو ضعف، وما يعوق القدرة من نقص في المال، جعل الله ذلك عذرًا للمؤمنين، يرفع الله به عنهم الحرج لوجود أحد النوعين.
ففي قوله: ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ ﴾ حديثٌ عن العجز فيما يتعلق بالجسد؛ لأن الإنسان الذي يقاتل بجسده، ويحمل السلاح في وجه الأعداء لابد أن يكون ذا صحة، وأن يكون ذا قوة، فإن عجز جسده بالمرض، أو بالكبر والشيخوخة فقد رفع الله

(١) الصف : ١٠ ، ١١ .
(٢) التوبة : ٩١ .

عنه الحرج، وحط عنه وزر التخلف عن القتال.

وفي قوله : ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ حديثٌ عن العجز المالي لضيق ذات اليد، والجهاد لا يتم إلا بقدرة مالية، فإن لم توجد هذه القدرة المالية فقد رفع الله الحرج عن أصحابها، المتخلفين عن القتال بسببها بعد وضوح عذرهم، وبيان حالهم، وظهور عجزهم وعجز غيرهم عن حملهم وتجهيزهم، وهذان النوعان اللذان رفع الله عنهما الحرج مطالبان بصدق النية، وسلامة الطوية، إذ رفع الحرج عنهما مقرونٌ بما قاله الله: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾[1].

وهذا الربط في الآية الكريمة بين أصحاب الأعذار المتعلقة بالأبدان، وأصحاب الأعذار المتعلقة بالأموال فيه بيان للمؤمنين، وحجة للصادقين الذين لا يستطيعون الجهاد بأنفسهم، أن يمارسوا هذه العبادة، ويقوموا بطاعة الله فيها بالإنفاق من أموالهم، فإن عجزوا عن الجهاد بالنفس، وعن الجهاد بالمال مع صدق النية، فإن الله ـ بفضله ـ جعل لهم بابًا من أبواب الجهاد يحققون فيه لأنفسهم الأجر والثواب، ويشاركون المجاهدين فيما يعطيهم الله من فضل، بيّن ذلك رسول الله ﷺ حين قال: «مَنْ جَهَّزَ غازيًا فقد غزا، ومن خلف غازيًا في أهله بخيرٍ فقد غزا»[2].

وإخلاف الغازي في أهله بخير قد لا يتطلب اكتمال الصحة، ولا وجود المال، وإنما هو إرشاد لأهل الغازي، ورعاية لهم، وحفظ لشؤونهم، ومحافظة على الأموال والأعراض من كيد المنافقين، وشرور الماكرين.

وبهذا نجد أن للفرد جوانب يستطيع بها أن يحقق الجهاد، فمن لم يجاهد بنفسه لعذر من الأعذار، فإن باب الجهاد بالمال يظل مفتوحًا له ؛ ليكون في عداد المجاهدين إن دخل منه، وأخرج من ماله في سبيل الله، ومن لم يجاهد بنفسه ولا بماله لعذر يعلمه الله فإن في وسعه أن يشارك المجاهدين في الأجر حين يخلف بعض الغزاة في أهلهم وشؤون حياتهم، ليحقق لنفسه هذا الأجر الجليل، والثواب العظيم الذي أعلنه أبو هريرة حين

---

(١)التوبة : ٩١ .

(٢)أخرجه البخاري (٢٨٤٣)، ومسلم (١٨٩٥).

قال: «رباط يومٍ وليلة في سبيل الله خيرٌ من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود في بيت الله الحرام»[١] .

فهل بعد هذا يَضِنُّ مسلم بماله، أو جهده ، أو نفسه في سبيل الله ؟ !

(١) سبق تخريجه .

(٤)

الجهاد في سبيل الله ــ ٢

الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة :

يروي سلمة بن نفيل قال: بينا أنا جالس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجلٌ فقال: يا رسول الله، إن الخيل قد سُبيت، ووضع السلاح، وزعم أقوامٌ أن لا قتال، وأن قد وضعت الحرب أوزارها، قال رسول الله ﷺ : «كذبوا الآن جاء القتال، وإنه لايزال من أمتي أمة يقاتلون في سبيل الله لا يضرهم من خالفهم، يزيغ الله قلوب قوم يرزقهم منهم يقاتلون حتى تقوم الساعة، ولا تضع الحرب أوزارها حتى يخرج يأجوج ومأجوج»(١) .

فالجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، تقوم به جماعة من المسلمين، والجهاد البدني لابد له من دعامة من المال يقوم بها، ويقوى بسببها، وآيات الجهاد وأحاديثه القولية والفعلية تدل على الارتباط المتين بين الجهاد البدني والجهاد المالي، فبهما معًا مع إخلاص النية، وصدق التوكل، والأخذ بالأسباب تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

النجاة من الهلاك :

ومن الناس من تقف في طريقه أعذار تمنعه من الجهاد بنفسه في سبيل الله، وليس له عذر في أن يجاهد بماله في سبيل الله، فما الذي يمنع الموسرين من أن يقدموا من أموالهم للمجاهدين لينالوا بذلك ثوابهم ولا يُحرمون أجرهم ؟

وقد جاء الأمر بالإنفاق في سبيل الله فرارًا من الدمار والهلاك الذي يلحق الحريصين على المال فلا ينفقونه في سبيل الله، قال سبحانه: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾(٢) .

يقول ابن كثير : « ومضمون الآية : الأمر بالإنفاق في سبيل الله، وفي سائر وجوه القربات والطاعات، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء، وبذلها فيما يقوى به

(١)أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٥/ ٢١٨)، والطبراني في المعجم الكبير (٧/ ٥٣) رقم (٦٣٧٥).
(٢) البقرة : ١٩٥ .

المسلمون على عدوهم، والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده»[(١)] .

وهذا الإنفاق الذي أُمِرَ به المسلمون القادرون نجد له في اللغة معنيين، قد يظنهما غير المتأمل متناقضين، ولكن المتأمل المتدبر يجد المعنيين متكاملين متوافقين، لا تناقض بينهما، فقد جاء في القاموس المحيط: نفق البيع نفاقًا بمعنى راج، ونفق ينفق بمعنى فني أو قلّ، وأنفق بمعنى افتقر، وأنفق ماله بمعنى: أنفده، واستدل بعض اللغويين على المعنى الأخير بقول الله: ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ .... ﴾[(٢)] . أي خوف نفاد المال أو نقصانه.

فكلمة الإنفاق معناها : الرواج والانتشار .

ومعناها كذلك : النفاد والنقص والهلاك.

فكيف يتفق المعنيان ولا يتناقضان ؟

وكيف يكون نقص المال بالإنفاق منه رواجًا وانتشارًا؟

إنه فضل الله؛ إذ المال الذي يُنفق في سبيله، وابتغاء مرضاته، وإن كان نقصًا في الجانب المادي من المال بحساب البشر إلا أنه رواج مدخر عند الله، وثواب مضاعف أضعافًا؛ فالنقص أو النفاد في الدنيا، والرواج في الآخرة عند الله، ومن هنا كانت هذه الكلمة هي المعبرة عن المعنيين معًا، ليكونا في ذهن المجاهدين بأموالهم، وهم يعلمون أن ما عندهم ينفد وما عند الله باق.

وقد رأينا من قبل أن الإنفاق في سبيل الله ليس قاصرًا على إنفاق المال وحده، بل الذين يَرْعَوْنَ أُسَر المجاهدين وأبناءهم لهم أجرٌ عظيم، وكأنما كانوا غزاة عاملين.

والذين يقدمون للمجاهدين ما يلزمهم ، بالتصنيع أو الإمداد والمساعدة هم كذلك ينالون من الله أجرًا على عملهم الجهادي، وقد بيَّن ذلك رسول الله ﷺ في قوله: «إن الله عز وجل يدخل ثلاثة نفر الجنة بالسهم الواحد: صانعه يحتسب في صنعه الخير،

---

(١)مختصر تفسير ابن كثير (١/ ١٧٢).

(٢)الإسراء: ١٠٠ .

والرامي به، ومنبله[(١)]»[(٢)].

من أبواب الجهاد:

فالجهاد ليس مقتصرًا فقط على الجماعة التي تقوم به، ولكنه يتعدى ذلك، ويفتح الباب أمام الأفراد ليساعدوا في الجهاد بأموالهم وأوقاتهم وصناعتهم وإمدادهم، وتأمين طرق المجاهدين، وإخلافهم بخير في أهليهم، وسد الثغرات أمام الأعداء، وإقامة المصحات للجرحى من الغزاة، وغير ذلك مما يدخل في عداد الجهاد، وإن ظن - بعض الناس - أنه ليس منه، والإنفاق يدخل في كل هذه الأبواب؛ إذ ليس معناه إنفاق المال فقط، ولكن إنفاق الجهد والعمل والوقت وكل ما يستطيع الإنسان في سبيل الله.

والقرآن الكريم أخبر عن جماعة فقيرة جاءت لرسول الله ﷺ لتجاهد معه فلم يجد ما يحملهم عليه، فأمرهم بالبقاء في المدينة، هؤلاء ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾[(٣)]، فهم باكون حزنًا لعدم مقدرتهم على الجهاد في سبيل الله بأنفسهم لعجز القدرة المالية، وهم لم يستطيعوا أن ينفقوا شيئًا من وقتهم وعملهم في مساعدة المجاهدين فسالت منهم الدموع لحرمانهم من عبادة عظيمة لها أجرٌ جليل عند الله، ولا يفعل ذلك إلا إنسان له قلبٌ إيماني متحرق شوقًا إلى إرضاء الله وتقديم النفس والنفيس في سبيل إعلاء كلمته، فما فرحوا حينما أخبرهم الرسول ﷺ بأنه لا يجد ما يحملهم عليه، وما قالوا: إن الله كفانا عبء القتال، وخطورة الجهاد على أنفسنا وأهلينا، ولو فعلوا لفضحهم الله وكشف سترهم، وأبان خبيء قلوبهم، ولكنهم رجعوا آسفين حزانى باكين لحرمانهم من هذا العمل العظيم، وإن نالوا الثواب بنيتهم وحسن طويتهم، تلك التي صدقتها دمعوهم، وأظهرها حزنهم وجزعهم لمكوثهم في المدينة بعيدًا عن تناوش السلاح، ومعمعة المعارك، وشتان شتان بين دموع رجل حُرِمَ الجهاد،

---

(١) منبله: أي الذي يقوم عند الرامي فيناوله سهمًا بعد سهم، أو يرد عليه النبل من الهدف.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٤)، وأبو داود (٢٥١٣)، والنسائي (٣١٤٦) من حديث عقبة بن عامر، وضعفه الألباني، وللحديث طرق وشواهد يحتمل معه التحسين، وانظر تفصيل ذلك في التعليق على مسند أحمد للأرناؤوط (١٧٣٠١)، مؤسسة الرسالة.

(٣) التوبة: ٩٢.

ودموع رجل يقوم بالليل والناس نيام، وكلا الرجلين في طاعة وعبادة حقًا، ولكن شتان بين الدمعتين، وشتان بين الرجلين، وشتان بين الموقفين، وهذا عبد الله بن المبارك يكتب للفضيل ابن عياض وكانت على خده شقوق من البكاء، وهو من عُبَّاد الحرم يقول له:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمتَ أنك بالعبادةِ تَلْعَبُ

مَنْ كان يخضبُ جيده بدموعه ... فنحورُنا بدمائنا تتخضبُ

أو كان يُتْعِبُ خَيْلَهُ في باطِلٍ ... فخيولُنا يوم الصبيحةِ تتعبُ

رِيحُ العبيرِ لكم، ونحنُ عبيرُنَا ... رهجُ السنابِكِ[1] والغُبَارُ الأطْيَبُ[2]

ولقد أتانا من مقال نبينا ... قولٌ صحيحٌ صادقٌ لا يكذبُ

لا يستوي وغبار خيل الله في ... أنف امرئٍ ودخانُ نارٍ تَلهبُ

هذا كتابُ الله ينطقُ بيننا ... ليسَ الشهيدُ بميتٍ لا يكذبُ [3]

لقد كان السلف الصالح يتزود من الإيمان بالمشاركات الجهادية بالنفس والمال أو بأحدهما، أو بغيرهما، مما يعين على الجهاد ويساعد المجاهدين.

ونحنُ نتزود من الإيمان بالعمرة وحج التطوع، فشتان بين جيلين ، وشتان بين طاعتين.

فالسلف بكوا لحرمانهم من عبادة الجهاد ، والخلف لا يبكون لتقصيرهم في هذه العبادة، والله سبحانه جعل العقاب على المقصرين القادرين، قال سبحانه: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ...﴾ [4]،

(١) رهج السنابك: الرهج: الغبار، والسنابك: جمع سنبك، وهو طرف حافر الخيل وجانباه من قدام.

(٢)يشير إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « لا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخانُ جهنم في جوف عبدٍ أبدًا، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدا»، أخرجه أحمد (٢/ ٣٤٠)، والنسائي (٦/ ١٢، ١٣)، والحاكم (٢/ ٧٢) من حديث الليث عن محمد بن عجلان عن سهيل بن صالح عن أبيه، عن أبي هريرة، وقال الأرناؤوط في سير أعلام النبلاء (٨/ ٤١٢): «وهذا سند حسن»، وصححه ابن حبان (١٥٩٧، ١٥٩٩)

(٣)انظر الأبيات في : سير أعلام النبلاء، للذهبي (٨/ ٤١٢)، وتاريخ الإسلام، للذهبي (١٢/ ٢٤٠)، وطبقات الشافعية ، للسبكي (١/ ١٥١)..

(٤)التوبة : ٩٣ .

فالعقاب واقع على الأغنياء الذين يبخلون بأموالهم، ويرضون لأنفسهم أن يكونوا مع الخوالف من العجزة والمرضى والصبية والنساء، فهم لم يريدوا أن يحققوا الرجولة بالقتال البدني، فرضوا بأن يكونوا من الخوالف، ولم يريدوا أن يساعدوا المجاهدين بأموالهم فبخلوا بها، وحرصوا عليها؛ ولذا طَبَعَ الله على قلوبهم فلا تعرف الهداية طريقها إلى هذه القلوب، التي نكصت عن عبادة عظيمة أمر الله بها، وهم قادرون على أدائها.

الصفقة الرابحة :

والصفقة التي أمر الله تعالى بها إنما تقوم على هذين الركنين (البدن والمال) : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [1]، فالجانب البدني والجانب المالي هما اللذان يقدمهما من يريد الجنة ويسعى لها سعيها.

والجانبان معًا (البدني والمالي) داخلان في التجارة الرابحة التي ذكرها الله في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ .... ﴾ [2] .

فالمؤمنون الراجون رحمة الله وجنته عليهم أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والله ـ سبحانه ـ لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وما دمنا غير قادرين على أن نجاهد بأنفسنا لعذر أو لآخر يعلمه الله، فماذا يمنع أن نجاهد بأموالنا، وأن نعقد الصفقة مع الله بشيء واحد نستطيعه هو تقديم العون من مال أو غيره؟ والله عليمٌ بعباده، لا يشق عليهم في تكاليفهم، فمتى قام عذر يمنع الجهاد البدني، فليس هناك عذر أمام الأغنياء أن يجاهدوا في سبيل الله بأموالهم، والله برحمته يعطيهم ثواب العاملين، وأجر المجاهدين.

---

(١)التوبة : ١١١ .

(٢)الصف : ١٠ ، ١١ .

(٥)
الجهاد في سبيل الله ـ ٣

جواذب الطين تمنع الجهاد:

إنما يمنع الإنسان القادر من الجهاد أمرٌ واحد أبانه الله ـ سبحانه ـ في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ...﴾[1].

فالمانع من الجهاد والنفرة في سبيل الله ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ...﴾، أي: جذبتكم جواذب الطين، وغرتكم الدنيا بزينتها وألصقتكم بحطامها، فتهالكتم عليها، ولم تحرصوا على الموت الشريف؛ لتوهب لكم الحياة الكريمة، فهذا يضن بنفسه، وذا يضن بماله، وبالبخل بالنفس وبالمال في سبيل الله يتوقف الجهاد، ولا يسود دين الله في الأرض، ويذل المسلمون، وكأنما لا كرامة لهم بين الأمم.

وعلى المسلمين أن يراجعوا إيمانهم، وأن يتحسسوا قلوبهم ليروا عمق الإيمان فيها؛ لأن الله ـ سبحانه ـ أخبر فقال: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾[2].

فالذين لا يجاهدون في سبيل الله مع قدرتهم الجسدية أو قدرتهم المالية، عليهم أن يراجعوا إيمانهم؛ لأن الله أخبر عن جماعة بأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر وقلوبهم في شك وريب، والتردد يلاحقهم، كل ذلك لأنهم نكصوا عن الجهاد مع قدرتهم وسعة أموالهم.

والعلاج من هذه الحالة هو في قول الله: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إن ...﴾[3].

هذا التوجيه الرباني هو الذي يُحرّك الإنسان المسلم فلا يتعلق بالطين، بل ينطلق من

---

(١) التوبة: ٣٨.
(٢) التوبة: ٤٤، ٤٥.
(٣) التوبة: ٤١.

ثقل الدنيا ومغرياتها مقاتلاً بنفسه في سبيل الله، أو مقاتلاً بماله إن لم يستطع أن يقاتل بنفسه.

فالمسلم قادر على الجهاد بماله إن عاق الجهادَ بنفسه عذرٌ أو مرض أو غير ذلك من المعوقات؛ إذ الإيمان بالله يدفعه لطاعته فيما أُمِرَ به، والتفكر في اليوم الآخر يدفعه للاستعداد له بأكثر الطاعات ثوابًا عند الله؛ ليكون من الشهداء الأحياء عند ربهم، أو من العائدين بأجر وغنيمة، وبخاصة أن المسلمين جميعًا يعلمون فضل هذه العبادة من حديث رسول الله ﷺ المروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: أتى رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: «أيُّ الناس أفضل؟»، قال عليه الصلاة والسلام: «مؤمنٌ يجاهد بماله ونفسه في سبيل الله...»[1].

وجوب مشاركة القادرين في الجهاد:

والسائل هنا يسأل عن أكثر الناس أجرًا وثوابًا، والرسول ﷺ يجيبه بهذه الإجابة: «مؤمنٌ يجاهد بماله ونفسه في سبيل الله...»، ليظل هذا القول علامة وراية تشد المسلمين إلى الجهاد بأنفسهم وأموالهم، والذين لا يستطيعون أن يجاهدوا بأنفسهم عليهم أن يجاهدوا بأموالهم؛ إذ الجهاد يتطلب الأمرين معًا، ولايقوم إلا عليهما، فإذا وُجِدَ من بين المسلمين من يجاهد الشرك والمشركين في بلاد الأفغان وفسطين فعلى المؤمين القادرين في كل أرض مد هؤلاء بالأموال والمعونات وغيرها من المستلزمات التي يتطلبها الجهاد في عصرنا، فيكونون مجاهدين بأنفسهم، ونكون نحن مجاهدين بأموالنا التي نمدهم بها، وبهذا نشاركهم في الثواب، ويكون لنا أجر عند الله مدخر لا ينفد، والرسول ﷺ قال: «مَنْ جَهَّزَ غازيًا فقد غزا، ومن خَلَفَهُ في أهله بخيرٍ فقد غزا»[2].

فهذا يوفق ليجاهد بنفسه وماله، وذاك يوفق ليجاهد بماله فيجهز غازيًا، ويهيئ له عدة الحرب، وأسباب تحقيق النصر، وآخر يخلف الغازين في أهليهم بمعونتهم وبرهم،

(١)أخرجه البخاري (٢٧٨٦)، ومسلم (١٨٨٨).

(٢)حديث صحيح ، تقدم تخريجه.

وذلك تيسير من الله أن ينفق الإنسان في سبيله ما استطاع ولو كان قليلاً، فمن الناس من ينفق مئات الدنانير، ومنهم من ينفق دينارًا أو أكثر، ومنهم من ليس عندهم مال، ولكنه يحث على البذل، ويدل على الخير، والدال على الخير كفاعله، فلا يحرم مؤمن عَمِلَ في هذا الجانب الخير والثواب، وهذا من توفيق الله وفضله.

فكثير من الموسرين ينفقون ، ومنهم من يوفقه الله فينفق في سبيل مرضاته، وفي أعلى جوانب الخير والأجر وهو الجهاد، ومنهم من ينفق تبعًا لهواه، وفي سبيل الشيطان، والله يوفق المؤمنين للخير ، ويهديهم إلى الرشد، فالمجاهدون بأموالهم وفقهم الله لهذا؛ لأن الله لا يعطي فضله إلا لأهل الإيمان، وقد قال العلماء في تفسير حديث رسول الله ﷺ : «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»[1]، قالوا: لا يوفق لها إلا أهل الإيمان.

فالله يوفق المؤمنين لطاعته، فمن جاهد في سبيل الله بماله أو بنفسه فليحمد الله على فضله، ومن لم يجاهد ـ مع قدرته ـ فليراجع نفسه وليتب إلى الله، وليبادر بالجهاد بماله لينال الثواب، وينجو من العقاب، قال سبحانه: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾[2].

---

(١)أخرجه أبو داود (٣١١٦)، والحاكم (١/ ٥٠٠) من حديث معاذ بن جبل]، وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني .

(٢)التوبة : ٣٩ .

(٦)
ثمار يانعة للتربية الإيمانية

الطريق المستنير :

إن سلوك كل فرد يتم بناء على تربيته الدينية ومشاربه الفكرية التي عليها يُبنى عمله، وتتجه في الحياة حركته، مع ما يكتسبه من بيئته في أسرته ومجتمعه والمحيطين به من أصحاب وأتراب، ومن عادات وتقاليد وأعراف تشيع بين الناس.

ويختلف تصرف المسلمين وسلوكهم بقدر ما رُبُّوا عليه من مناهج الإسلام وما اكتسبوه من معاني القرآن، وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، ويكاد لا يختلف اثنان في أن الذين رباهم آباؤهم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فعرفت أقدامهم طرق المساجد، وعرفت ألسنتهم آيات الكتاب، وامتلأت بحب الإيمان؛ لأنه الدين الذي أنزله رب العالمين، وشرع تعاليمه ليتربى عليها، ويعيش بها ولها الصادقون، هؤلاء لهم في الحياة منهج قويم، وسلوك مستنير.

والناظر في سيرة أصحاب الرسول ﷺ يجد نماذج فذة وعديدة، تمثل بحركتها في الحياة، وسلوكها بين الناس ثمارًا يانعة لشجرة الإسلام العظيمة الظليلة، فقد كان هؤلاء الصحابة الذين رباهم الرسول ﷺ يرون الربح والفوز في مقام يراه الآخرون نكالاً وخسارة، وكانوا يرون الصدق في مقام يرى فيه الناس أن لا مخلص لهم من الكذب.

مواقف خالدة :

فهذا الصحابي حِرام بن ملحان لما طعنه أحد الكفار مسح الدم عن وجهه وقال: «فُزْتُ بها ورب الكعبة».

فقال الكافر : «أي فوزٍ هذا، وقد صككتُهُ بالرمح على رأسه وفار دمه؟!».

فلما أسلم هذا الكافر ـ فيما بعد ـ وعلم ما أعده الله للشهداء، زال عجبه، وأقر مع المقرين واعترف، وقال: «إنه والله الفوز المبين».

ويتصدى الكفار لصهيب الرومي ليمنعوه من الهجرة ، وهو ـ في زعمهم ـ كان

فقيرًا فاغتنى في أرضهم، ويعلو الإيمان في نفس هذا الصحابي على متاع الحياة الدنيا، فيعقد مع المشركين صفقة رأى المشركون أنه فيها مغبون، ورأى هو أنه الرابح، فترك ماله وهاجر، ويقول له الرسول ﷺ: «ربح البيع أبا يحيى»(١)، فكان هذا القول تأكيدًا لما في نفس صهيب من أنه ربح ولم يخسر شيئًا.

وأنزل الله ــ سبحانه ــ في ذلك قرآنًا يُتلى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾(٢).

وخالد بن الوليد البطل المجاهد الصنديد، يُعَرِّفُنَا ويضع أمامنا لونًا جديدًا من الحب لم يعرفه غيره من قبل، ولم يقع عليه خيال المعجبين، ولا تعبير الشعراء المحبين، يقول: «لليلةٌ شديدة الجليد في كتيبةٍ من المهاجرين والأنصار، أُصَبِّحُ بهم الكفار، أحبَّ لديَّ من فتاة حسناء تُزفُّ إليَّ».

ووقف عبَّاد بن بِشْر أثناء حراسته الليلية يتهجد في موقعه، فيصيبه سهم وثان، وثالث، وهو لا يقطع صلاته، ثم أيقظ زميله في الحراسة، وفسَّر ذلك فيما بعد أنه كان يقرأ سورة من القرآن، وأحبَّ أن يتمها، ولولا خوفه أن يُؤْتَى المسلمون من قِبَلِهِ ما قطع صلاة كان يجد فيها لذة المناجاة مع المَلِك العلام رب السموات والأرض الرحمن.

وعثمان بن عفان تأتيه قافلة من الشام مُحمَّلة بالبضاعة التي يشتاق إليها سوق المدينة، مئات الإبل تحمل الزبيب والطعام والكساء، ويجتمع تجار المدينة إلى عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويزيدون في أثمان البضاعة أضعافًا وهو يقول: هناك من يدفع أكثر.

فقالوا: نحنُ تجار المدينة، ليس فيها غيرنا، فمن الذي يدفع أكثر؟

قال: إن الله أعطاني عشرة أضعاف، فهل من يزيد؟

قالوا: لا.

فقال: اشهدوا أني جعلتها في سبيل الله بحمولتها.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٤٠٠)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.
(٢) البقرة: ٢٠٧.

تجارة رابحة :

إنها التربية الإيمانية التي تبرز في كل ميدان، وتتفوق بسلوك أصحابها في كل مكان، وتستعلي على متاع الحياة، طمعًا فيما تدخره عند الله من عظيم الأجر والثواب، وجميل الفضل والإحسان: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾[1] .

إنها تجارة رابحة لن تبور : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾[2] .

فأين الـمُشترون ؟ وأين الـمُبتاعون ؟

(١) الرحمن: ٦٠ .
(٢) الصف : ١٠، ١١ .

(٧)

تمحيص الولاء لله

أُسُّ البلاء افتقاد الولاء :

الوليّ : هو القريب الداني، والمحب والصديق والنصير [١] .

فالولاء هو إحساس بالقرب ممن تواليهم ، يقوم على المحبة والنصرة والتأييد، والولاء للمؤمنين أمرٌ لا يحتاج إلى كثير براهين، أو عظيم أدلة، إذ لا ينكره أحد، وهو لا يغيب عن بال مسلم، وهل ينكر أحد القرابة الإيمانية بين المؤمنين، وهو يقرأ قول الله الكريم: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [٢] .

وهل ينكر أحد هذه القرابة ، وقد جاءه قول رسول الله ﷺ : «المسلم أخو المسلم...» [٣] .

فقرابة المؤمنين بالله غير منكورة، بل هي معروفة مذكورة، والمؤمنون يفتقرون ويفتقدون المحبة بينهم التي تؤدي إلى النصرة التي أمر بها الرسول ﷺ في قوله: «انصر أخاك ظالـمًا أو مظلومـًا» [٤] .

تلك النصرة التي تحق الحق، وتبطل الباطل، وتزيل المنكر من مجتمع المسلمين، فيلتقي أفراده على الصدق والوفاء، فيكون المسلمون بذلك يدًا واحدة، تحمل راية لا إله إلا الله محمد رسول الله تنشرها في الخافقين، فيُسمع بها صوت الأذان في العالمين.

يفتقر المسلمون إلى هذه النصرة، ويفقدونها اليوم، فتتفكك روابطهم، وتُحل أواصرهم، فيكونون بين الناس طرائق قددًا، وشعوبًا متناحرة، ولاؤهم للغرب أو للشرق، وليس ولاؤهم للسماء، ولا للذين يجيبون النداء في كل يوم خمس مرات.

ولم يكن ذلك هدي الصحابة الذين رباهم رسول الله ﷺ على يده، إذ إنهم فهموا

---

(١) القاموس المحيط، انظر: وليَ .

(٢) الحجرات : ١٠ .

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠).

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٤٤).

الـولاء حـق الفهـم، وطبقـوه حـق التطبيـق، فاتـسعت لهـم الأرض، وامتـد نـور الله في العالمين، وكانوا في مقدمة الركب، ركب الأمم يقودونها بمنهج الله، فيستريح الـسائرون معهم، وينظر لهم المخالفون في الدين نظرة إعجاب وتقدير.

الولاء طاعة وعبادة :

ولقد أكبر الصحابة هذا الولاء، واعتبروه مكملاً للطاعات والعبادات التي يُتَقَـرّب بها لله، وربما كانت العبادات بغير الولاء لا جدوى منها، ولا نفع فيها.

هذا عبد الله بـن عمـــر يكشف عـن ذلـك في قولـــه : «والله لـو صـمتُ الـنهـــار لا أفطره، وقمتُ الليل لا أنامـه، وأنفقتُ مـالي في سـبيل الله، أمـوتُ يـوم أمـوت ولـيس في قلبي حب لأهل طاعة الله، وبغض لأهل معصية الله ما نفعني ذلك شيئًا»[1] .

وكـان الـصالحـون يعتـبرون حـبهم للمـؤمنين الـصادقين قربـة يتقربـون بهـا إلى الله، ويأملون أن يكون في هذه القربة ستر للذنوب، وتكفير للمعاصي.

وقد اتجه ابن السمَّـاك إلى الله بهذا الدعاء عند موتـه فقـال: «اللهـم إنـك تعلـم أني إذا كنتُ أعصيك، كنتُ أحب من يطيعك، فاجعل ذلك قربة لي إليك»[2] .

وعلى هذا الحب للمؤمنين الذي هو أسـاس مـن أسـس الـولاء قامـت النـصرة بيـنهم للدين الـمستمسكين به بكل سبيل، وتقديم كل جهد ممكن، وتسخير كل عـزم مـستطاع لهذا الأمـر، وإن اشتد الخطب، وزاد الوعيد والتهديد.

إخلاص الـولاء :

وهذا أبو بكر الصديق ـ وكان عالـمـًا بالأنساب ـ يخرج مع رسول الله ﷺ ، في مكـة ليدله عـلى قبائـل العـرب، فيـدعوها رســـول الله ﷺ للـدين الجديـد، فـسخَّـر أبـو بكـر تخصصه ـ وهو العلـم بالأنـساب ـ لخدمـة الـدين، دون أن يعبأ بتهديـد قـريش للرسـول ﷺ، ودون أن يعبأ بأبي لهب، السائر من ورائهما ينادي في القبائل بتكذيب الرسول ﷺ، والتحذير من دعوته، ويقـول: أيهـا النـاس، لا تـسمعوا لهـذا الـصابئ، فهـو يـدعوكم إلى

(١)إحياء علوم الدين (٢/ ٢٤٩) ، ط دار الحديث.

(٢)إحياء علوم الدين (٢/ ٢٤٩) ، ط دار الحديث.

الضلالة، يدعوكم إلى ترك عبادة الآلهة، وتسفيه الأحلام، وسب الآباء، والرسول ﷺ لا يلتفت إليه، وأبو بكر مع الرسول ﷺ يؤدي واجب الولاء والنصرة في صراحة ووضوح، يمهد للرسول ﷺ الطريق، ويصل بينه وبين القبائل في غير خوف ولا وجل، ولا ضعف ولا خجل.

وها هو ذا يقوم بمهمته مع وفد شيبان فيتقدم إليهم، حتى إذا ما اطمأن لهم قال: تقدم يا رسول الله، فتقدم رسول الله ﷺ ..

فقال متكلم القوم: إلام تدعو يا أخا قريش؟

قال: «أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله».

فقال متكلم القوم: ثم إلام تدعو أيضًا يا أخا قريش؟

فتلا قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ...﴾[1] .

ثم بيَّن ما حرمه الله، ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾[2].

فقال متكلم القوم: إنك تدعونا يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، إلا أن الأمر الذي تدعو إليه تكرهه الملوك، وإن بيننا وبين ملك الفرس عهدٌ وميثاق، فإن شئتَ منعناك من تجاه مياه العرب، فإن العرب يغدرون، وملك الفرس لا يغدر، ولكسرى عهده وميثاقه.

وتبين من هذا الكلام أن وفد شيبان يريد أن يقسم الولاء قسمين : قسم لله ورسوله، وقسم لطاغوت الفرس، فماذا قال الرسول ﷺ في هذا الأمر؟

قال: «ما أسأتم بالرد إذ أفصحتم بالصدق، إلا أنه لن ينصر هذا الدين إلا من أحاطه من جميع جوانبه»[3] .

---

(١)الأنعام : ١٥١ .

(٢)النحل: ٩٠ .

(٣)البداية والنهاية (٣/ ١٤٢) ط دار الكتب العلمية، وقال ابن كثير : «رواه أبو نعيم والحاكم والبيهقي، وهو حديث غريب جدًا».

ولن يحيط أحد بجميع جوانب الدين وولاؤه مقسم بين المؤمنين والمشركين، فإما ولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، وإما ولاء لغير ذلك.

وإجابة رسول الله ﷺ إجابة حازمة لا ترضى بأنصاف الحلول، وتقسيم النصرة والولاء، ومداهنة الباطل وأهله، ومع أن الظاهر لكل متعجل أن مصلحة الدعوة آنذاك كانت تقتضي الرضا بهذا التقسيم؛ لأن الدعوة كانت في مسيس الحاجة إلى الحماية والنصرة والتأييد، ولكن الرسول ﷺ يرى مصلحة الدعوة في الثبات على الحق، والتمسك بالمبدأ، وإظهار الولاء وتمحيصه ـ خالصًا ـ لله ولرسوله، فكانت نظرة الرسول إلى نهاية الطريق، وإلى العاقبة للمتقين، وأن دعوة الله ظاهرة، وإن تخاذل عنها أقوام بحجب ولائهم فسيسخر الله لها من ينصرها ويؤيدها ويحملها وينشرها: {ˆ$إن تّتّوّلَّوًا يّسًتّبًدٌلً قّوًمْا غّيًرّكٍمً ثٍمَّ لا يّكٍونٍوا أّمًثّالّكٍمً }[1] .

ويبقى للمتخاذلين الفساد في الأرض والفتنة المضلة جزاء تخاذلهم في ولائهم لله ولرسوله وللمؤمنين: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾[2] .

---

(١) محمد: ٣٨ .

(٢) الأنفال: ٧٣ .

(٨)
شارات يتحلى بها العاملون

اختلاط من أجل الخير والنماء :

يختلطُ المرء بالناس، وهم أصناف شتى ، وأنواع عديدة من حيث الـخُلُق، والاختلاط مؤثر جيد، وقد يأخذ المرء عن الناس، ويأخذون عنه، ينطبع بما في غيره من حُسن الـخُلُق أو سيئه، ويطبع غيره كذلك بما في نفسه من جميل الأخلاق، أو قبيح الصفات.

والذين ليسوا في أعداد الصالحين، وجملة المتقين، لابد من مخالطتهم مع الحذر من سيئ أخلاقهم، ونفور طباعهم، وعلى المسلم الصادق أن يؤثر فيهم بما معه من خُلق إسلامي صحيح، ولا يتأثر بما يحملون من خُلق غير صحيح ولا سليم فلا يتخذ المسلم من أحد هؤلاء قدوة له، يحبه ويواليه؛ لأنه لا يأمن مكرهم، ولا يسلم من شرهم وغدرهم، بل يكون ولاؤه للصالحين والصادقين من المؤمنين، يمدهم بعونه، ويؤيدهم بقوله وعمله ؛ لأنهم يحبون له الخير، ويتمنون له ما يتمنونه لأنفسهم من صالح الأعمال، وصادق الأقوال.. لهؤلاء يكون الولاء، ويجب الحب والتناصر والصفاء.

وأما غيرهم من المخادعين والماكرين فليحذر المرء من شرهم، فإن لهم من نيران غدرهم شرارًا، ويمكرون مكرًا كُبارًا، ولتكن مخالطتهم لبيان الخير والإرشاد إلى الحق، مع الحذر من سوء فعالهم، وبذيء كلامهم، وانحطاط كتاباتهم.

وليس معنى ذلك أن يحصر العاملون جهودهم في فئة معينة، إن ولاءهم للصالحين والصادقين أمر، ودعوتهم ونشرهم للحق أمرٌ آخر، ولذا فنشر الدين بين جميع الفئات يستحق أن يقدم الإنسان فيه التضحية وأن يصبر فيه على الأذى؛ لأنه يطمع في أن يعم نور الله الناس جميعًا، فطموحه ـ في هذا المجال ـ بغير حدود، وهو في ذلك يضع أمامه قول الشاعر:

إذا غامَرْتَ في شرفٍ مَرُومِ ... فلا تقنع بما دون النجومِ
فطعمُ الموتِ في أمرٍ حقيرٍ ... كطعم الموتِ في أمرٍ عظيمِ

وحقائقُ الأشياء ليست بمظاهرها التي يراها الناس، بل بالجوهر وما تحمله القلوب، فالعمل الدعوي بين الناس جميعًا ليس بمانع أن يكون الولاء للصادقين والصالحين من المسلمين، كما أن المال ـ وإن كثر ـ لا يكون مانعًا من الزهد.

وقد سُئل الإمام أحمد عن ذلك فأجاب بما رواه عنه الخلال قال: «بلغني أن أحمد سُئِلَ عن الزاهد يكون زاهدًا ومعه مائة دينار؟ قال: نعم، على شريطة إذا زادت لم يفرح، وإن نقصت لم يحزن».

فالمال ـ وإن كثر ـ غير مانع من الزهد مادام القلب عامرًا بالإيمان واليقين، مستيقنًا أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، فلا يفرح بطرًا بزيادة المال، ولا يحزن أسى لنقصه: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾[1].

وهكذا يظل الولاء والحب والنصرة والتمكين للمؤمنين مع اتساع دائرة العمل الدعوي بين جميع الناس من غير خلل ولا تناقض بين الأمرين.

اختيار مبنى الكلمة .. فنٌ وتوفيق :

يلزم العاملين المخلصين ـ ضمن ما يلزم ـ أن يحسنوا اختيار عباراتهم، قولاً كانت أم كتابة ؛ لأن للعبارة الصادقة الصحيحة مدخلاً سهلاً للقلوب، وتأثيرًا بينًا في النفوس، يجعلها تلين بعد شموس، وتحيا بعد دروس، وكان هذا المعنى يحرص عليه العارفون بالدين، الفاهمون لدعوة الإسلام الدين القويم.

جاء في كتاب طبقات الحنابلة: أن إسحاق بن بهلول كتب كتابًا سماه «كتاب الاختلاف»، فقال له أحمد بن حنبل: «سمِّه كتاب السعة»[2] .

فكانت نظرة الإمام أحمد أرحب وأوسع، مع وضوح العبارة، وصدق الدلالة؛ لأن الاختلاف في الفروع مع البعد عن اللجاجة والخصومة ـ كما كان يفعل السلف الصالح ـ والتمسك بالود والتقدير فيه سعة وراحة، فالدين يسع الناس جميعًا ـ وإن اختلفت

---

(١) الحديد : ٢٣ .

(٢) طبقات الحنابلة (١/ ١١٠) ط دار المعرفة .

آراؤهم وتصرفاتهم، فالأصول لا خلاف عليها، والفروع يأخذ منها كل إنسان بحسب فهمه وعلمه وطاقته وما يطمئن إليه من آثار ـ بعد الأخذ بالقرآن وصحيح الأحاديث.
ومن هنا كان الأخذ بالقاعدة المعروفة : «العبرة بالجواهر والمعاني لا بالألفاظ والمباني»، وهي القاعدة التي سار عليها العاملون في حقل الدعوة، وهذه صيحة الإمام حسن البنا يقول: «يا قومنا، لا تحجبكم الألفاظ عن الحقائق، ولا الأسماء عن الغايات، ولا الأعراض عن الجواهر»[١] . ويقول: « فلن تضرنا الأسماء متى وضحت المسميات، وانكشفت الغايات»[٢].

ومع هذا الحرص على المضمون، فأولى وأجمل وأوفى بالغرض أن يكون للعبارة جمالها اللفظي، فيتفق الشكل مع المضمون في الجمال والبهاء والحسن والرواء، فيكون التأثير أبلغ وأقوى.

وتلك الجملة من أقوال الإمام حسن البنا ـ رحمه الله ــ جمعت جمال اللفظ، وصدق المضمون، لترى منها ما نود أن نقوله، وما أفصحنا عنه من قبل.

قال يرسم الطريق أمام المخلصين من المؤمنين: «وأول نجاح المشروع أن تقتنع بشرف الغاية، ونجاح الوسيلة مع الفناء في الغاية، والتضحية في سبيل المبدأ»[٣].

وقال عن دعوة الإخوان المسلمين عبارة جامعة موجزة : «تريد أن تعرف دعوتنا افتح القرآن الكريم».

وقال يوضح بداية السبيل نحو الخير: «وإن من أول الخير أن تترك الشر»[٤].

وقال يبين للناس أن الحق محتاج إلى القوة لتظهره، حتى لا يطغى عليه باطل الظالمين، وتجبر المتكبرين: «القوة أضمن طريق لإحقاق الحق، وما أجمل أن تسير القوة والحق جنبًا إلى جنب»[٥] .

---

(١) مجموعة الرسائل (ص ٣٥) ط دار الشهاب .
(٢) مجموعة الرسائل (ص ٣٥) ط دار الشهاب .
(٣) مجموعة الرسائل .
(٤) مجموعة الرسائل (ص ٣٩) .
(٥) مجموعة الرسائل (ص ٤٠).

إنزال الناس منازلهم حتى لا نظلمهم :

وعلى الدعاة العاملين أن يُنْزِلوا الناس منازلهم، وأن يعرفوا أقدارهم وطاقتهم، فليس من الخير في شيء أن يوزن الناس جميعًا بميزان واحد، وأن تقاس أعمالهم بمقياس واحد، والدعاة العاملون، الذين يقومون بكثير من واجبات الدعوة التي لا يستطيعها كثير من الناس يخطئون في عملهم، ويسيئون إلى دعوتهم إن هم أرادوا من جمهور الناس وعامتهم أن يقوموا بما يقوم به هؤلاء الدعاة، ظانين أنهم بذلك يُحسنون إلى عامة المسلمين ولا يسيئون، وينتشلونهم من الغفلة التي هم فيها قابعون.

ونقول لإخواننا العاملين في سلك الدعوة العظيم : إن الداعية قدوة، قد يملك من الطاقات والقدرات ما لا يملكه غيره من عامة الناس، فكيف به يطالبهم أن يكونوا مثله، وهم إنما يحذون حذوه، فما سهل على فرد يصعب على آخرين، وعلينا ونحن ندعو الناس أن نراعي مثل هذه الأمور، وأن نقبلها من الناس مع حسن ظن، وسلامة قلب، وإخلاص نية.

وهذا هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه يضرب لنا المثل في ذلك.. يقول يحيى بن عبدالرحمن: «إنه اعتمر مع عمر بن الخطاب في ركب فيهم عمرو بن العاص، وأن عمر عرّس ببعض الطريق، قريبًا من بعض المياه فاحتلم وقد كاد أن يصبح فلم يجد مع الركب ماء، فركب حتى جاء الماء، فجعل يغسل ما رأى من ذلك الاحتلام حتى أسفر، فقال له عمرو بن العاص: أصبحتَ ومعنا ثياب فدع ثوبك يُغسل، فقال عمر بن الخطاب: واعجبًا لك يا عمرو بن العاص، لئن كنت تجد ثيابًا أفكل الناس يجد ثيابًا؟! والله لو فعلتها لكانت سُنَّة، بل أغسل ما رأيت، وأَنْضِحُ ما لم أر»[1]. هكذا ينظر القدوة إلى العمل العام مراعيًا ظروف الناس وأحوالهم وما هم عليه.

---

(١)أخرجه مالك في الموطأ (٨٣).

(٩)

علامات على طريق إزالة المنكرات

مجاهدة في الحق :

لا ينتفش الباطل إلا بموادعة الحق ومهادنته، ولا يظهر الظلام إلا إذا غابت الشمس، ولا ينحسر الدين ويصيبه الجزر إلا إذا انطوى العاملون المخلصون على أنفسهم، ولم يعملوا على مواجهة المنكر، وإزالة الباطل، وتوجيه الناس وإرشادهم إلى الحق، وحملهم على هذا الحق ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

ولا يتم ذلك إلا بالصبر الذي به يتحمل الدعاة إلى الله أذى المدعوين على اختلاف أنواعه، ويختلطون بهم، ليبينوا لهم الحق من الباطل، ولا ينفرون منهم، ومما هم عليه؛ لأن ذلك لن يفيد شيئًا، ولن يغير منكرًا، ولن يحق حقًا، وهم حين يفعلون ذلك الأمر يدركون أنهم في مجاهدة للباطل الذي يَسْتَشْرِي وينتشر؛ يعملون على إيقافه والقضاء عليه، وفي سبيل ذلك يتحملون الأذى، ويدركون أنهم ـ عند الله ـ مثابون، فَهِمَ هذا الأمر الدعاة العاملون، فبينوه للناس حتى يكون فيه المثل وفيه القدوة.

كان الحسن في جنازة وفيها نوائح ومعه رجل، فَهَمَّ الرجل بالرجوع، فقال له الحسن: «يا أخي إن كنتَ كلما رأيتَ قبيحًا تركتَ له حسنًا أسرع ذلك في دينك»[1].

وتلك نصيحة مؤمن صادق، يعرف مواطن الداء، ويصف لها ناجع الدواء، ليظل قلب المسلم متمسكًا بدينه، عاملاً من أجله.

الحاجة إلى النصيحة :

والنصيحة هنا واجبة على الناصح؛ ليصحح الخطأ، ويزيل الانحراف، وهي كذلك واجب قبولها من المنصوح ليعمل بها فيتخلص من كثير من الشرور، وينأى بخطوه وحركته عن كثير من الآثام، وقد قيل: «اقبل نصح أخيك المؤمن ولا تخالفه فإنه يرى

(١) وفيات الأعيان، لابن خلكان (٢/ ٧٠)، دار صادر ـ بيروت.

لك ما لا ترى أنت لنفسك»[١].

والمرءُ في كثير من الأحوال لا يرى عيوب نفسه، وهو في حاجة لمن يدله عليها من إخوانه المؤمنين الذين لا يلبسون على الناس، ولا يقدمون لهم إلا الخير والحق محضًا، خالصًا من غير شائبة، والقلة المؤمنة من الإخوان هي التي تفعل ذلك وتقوم به، بيد أن كثرة الناس وكثرة كلامهم وانتقادهم قد يكونون معاول هدم، لا يوجهون بل يسيئون ويخلطون حقًا بباطل، ونصحًا بغش، حسدًا منهم وحقدًا على الصادقين، وسلامة المرء في اجتناب كلامهم، وألا تصغي أذنه إلى أحاديثهم، لتسلم للمرء الحياة، وتُكتب له النجاة

وهذا الإمام الجيلاني ينصح غلامه فيقول: «يا غلام إن أردتَ سعة الصدر، وطيب القلب، فلا تسمع ما يقول الخلق، ولا تلتفت إلى حديثهم، أما تعلم أنهم ما يرضون عن خالقهم؟ فكيف يرضون عنك؟ أما تعلم أن كثيرًا منهم لا يعقلون؟»[٢].

صبرٌ على الناس وكف عنهم :

ومادام كثير من الناس لا يعقلون ، وليس في وسع العاملين ابتعاد أو انعزال عن هؤلاء فلابد من الاحتمال والصبر على الأذى والنكال، وهل أُوذي أحد كما أُوذي الأنبياء والمرسلون والشهداء والصالحون؟

ومجال القدوة في الصبر على الأذى واسع لا يضيق، وممتد لا ينقطع، تابع فيه الدعاة في كل عصر من سبقوهم، ممن اقتدى بهدي المرسلين، وكلها تجعل المرء يصبر على الأذى ويحتمل، ويحتسب عند الله ما يلقاه من أذى الناس واعتداءاتهم، وكيدهم، عالمين أن الاحتمال قبر المعاتب، كما قال الشريف بن الشجري حين اختصم إليه رجلان من العلويين يومًا، فجعل أحدهما يشكو، ويقول عن الآخر: «إنه قال فيَّ كذا وكذا»، فقال له الشريف: «يا بني احتمل، فإن الاحتمال قبر المعاتب»[٣].

---

(١)الفتح الرباني والفيض الرحماني، عبد القادر الجيلاني، ص ٢٧ .

(٢)نفس المصدر، ص ٣٧ .

(٣)نزهة الألباء، ص ٣٠٠ .

وإذا كان على المرء أن يحتمل إيذاء الخلق وسقطات ألسنتهم، فإن عليه أن يصون كلامه ويحفظ لسانه فلا يقع فيما يعيبه على الناس، ولا يجعل لسانه إلا أداة دالة على الخير، أو كافة عن الشر، وإلا ففي الصمت غناء وشفاء، وبُعدٌ عن الآثام، وسيئ الكلام، وهذا الشريف ابن الشجري صاحب النصيحة الماضية «كان إذا صمت لا يكاد يتكلم في مجلسه بكلمة إلا وتتضمن أدب نفس، أو أدب درس».

ومقاومة المنكر، والوقوف في وجه نزغـات الشيطان لا تكـون بكثير الكلام، بل تكون بإصابة الحق والتحلي بفضيلة الصدق مع الاختلاط بالناس واحتمال ما يكون منهم، وصون اللسان عن الخوض في الباطل، والوقوع في مستنقع اللجاجة والجدال.

وقد قيل: «إن الكلام ليس للمتكلم المكثر، ولكن للمقل المصيب»[١].

وقيل أيضًا : «شفاء العمى حسن السؤال»[٢] .

وقال أبو عمرو : « العالم من عُدت سقطاته »[٣] .

أي سقطات لسانه، وزلات كلامه؛ لأن العلماء يعلمون ـ قبل غيرهم ـ أن جملة قصيرة صادرة عن إيمان صادق ولسان ناطق (فصيح) تغني عن طويل الخطب، وكثير المقالات.

وانظر ـ أخي ـ في هذه الأقوال التي قالها أحد القضاة، لترى أنها أصابت المحز، وحازت السبق، مع إيجازها وقلة عدد كلامها.

يقول عيسى بن منصور الإفريقي القاضي في حِكَمٍ من نثره :

١ ـ أشرف الغنى ترك الـمُنى .

٢ ـ من قاسى الأمور علـم المستور .

٣ ـ من حصن شهوته صان قدره.

٤ ـ من أطلق طرفه كثر أسفه.

---

(١)نزهة الألباء، ص ١٤٤ .

(٢)نزهة الألباء، ص ١٥٤ .

(٣)نزهة الألباء، ص ٢٠٣ .

٥ ـ في تقلب الأحوال علم جواهر الرجال.

٦ ـ بحسن التأني تسهل المطالب.

٧ ـ الحسن النية يصحبه التوفيق .

٨ ـ المعاش مذل لأهل العلم .

٩ ـ كفاك أدبًا لنفسك ما كرهته لغيرك.

١٠ ـ قارِب الناس في عقولهم تسلم من غوائلهم[١] .

وبحسن خُلق العاملين، وجميل توجيههم، وسلامة بيانهم، واختلاطهم بغيرهم، وتحملهم إيذاءهم يكون النجاح ويكون الفلاح، وينحسر كيد الشيطان، وتقل وتضعف غواية الإنسان، وهذا هو طريق البناء.

قال الإمام حسن البنا ـ رحمه الله : «إن الطريقة الإيجابية أجدى ألف مرة من الطريقة السلبية، فاشغلوا الناس عن الفكرة الباطلة بفكرة صحيحة»[٢].

(١)ترتيب المدارك وتقريب المسالك ، للقاضي عياض (ص ٣).

(٢)مذكرات الدعوة والداعية (ص ١٢٥)، ط دار التوزيع والنشر الإسلامية، د.ت .

(١٠)

الأمانـة بين الهـديـة والرشـوة

الأمانة تتطلب القـوة :

الأمانـة صفة عظيمة يحبها الأوفيـاء، ويُقبل عليها الصادقون الأتقياء، فهي خُـلُقٌ جميل، يرفع من شأن صاحبه، ويُعلي من قدره ومكانته بين الناس، ويجعلهم له محبين، وعلى صداقته حريصين، يفرحون للقائه، ويفاخرون بمعرفته، ويثنون عليه باللسان، ويشيرون إليه بالبنان؛ لأنه يحفظ أسرارهم إن استودعوها إياه، ويستر عيوبهم إن تكشفت لديه، لا يغدر ولا يخون ولا يظلم ولا يجور، فالأمين قوي تمكن من نفسه فحملها على الحق، وخالف هواه، واتبع أمر الله، فاستطاع بذلك أن يحمل ما أبت حمله السموات والأرض والجبال، إنها صفة عظيمة لا يقوم بها غير المتقين المخلصين، ولا ينفر منها ويبتعد عنها غير المنافقين الكاذبين.

وعلى رأس الأمانات القيام بحقوق الناس، والعمل من أجل تحقيق مصالحهم، وما به يحسن حالهم في الدنيا والآخرة، وهي أمانة عظيمة الحرمة، من تصدَّى لها فقد حمل عبئًا كبيرًا، لا يحمله إلا الأقوياء، ولا يؤدي متطلباته إلا الشرفاء.

وكفى أن المؤمنين فرَّغوا خليفتهم الأول الصديق أبا بكر حين حمل أمانة المسلمين وتولَّى الخلافة، فقد حملوا عنه مؤونة [1] العيش والنصب من أجله، وسنّوا له من بيت المال، ليظل ناهضًا بحمل أمانة مسؤوليته عن المسلمين، لا يشغله عن أمرهم شيء، وكان هذا منهم إدراكًا عظيمًا لأمانة المسؤولية، التي يحملها الولاة نحو الرعية، فيصلحون شأن العامة والخاصة، ويحفظون تعاليم الدين ويحافظون على حدوده، ويوجّهون الناس إلى خير الدنيا وخير الآخرة، دون أن يأخذوا من أحدٍ ما ليس لهم بحق، فضلاً عن أن يحيفوا أو يجوروا، أو يسيروا في الناس سيرة لا يرضاها الله ولا يرضاها الناس.

---

(١) الأصل في كتابة الهمزة المتوسطة المضمومة أو بعد ضم أن تكتب على الواو، وقد أجاز المجمع كتابتها على نبرة.

وقد بيّن رسول الله ﷺ عظم هذه المسؤولية في حديثه الذي رواه عنه ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كُلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راعٍ ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيده ومسؤول عن رعيته، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته»(١).

ولا ينبغي لمن يستشعر الضعف من نفسه أن يتولى ولاية عامة من أمور المسلمين، فقد يُستغل فيه جانب الضعف، فيميل عن صراط العدالة، ليرضي فئة من الفئات أو فردًا من الأفراد، فتكون الطامة التي لا تقف به عند حد معين.

أثر الهدية على ضعاف النفوس :

والناس ليسوا سواسية في حب العدل، وإحقاق الحق ، والانتصاف من النفس، وبذل ما عليها لغيرها في غير ضيق ولا ألم، ولذا فإنك تجد منهم من يحاول أن يسترضي أصحاب الشأن، ليصل لبغيته عن طريقهم، مستخدمًا وسائل الترغيب التي تهواها النفوس، وتستريح لها القلوب.

والهدايا باب واسع لإرضاء النفوس وجلب المحبة، ولكنها للمسؤولين عن رعايا المسلمين قد تكون بابًا من أبواب الشر يدخل منه الباطل، ويلج منه الضلال، وتحبس عنه العدالة، وتهان في الكرامة.

وهذا ما استشعره أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين كتب إلى عماله: «ألا إن الهدايا هي الرشا، فلا تَتَقْبَلُنَّ من أحدٍ هدية».

وقد كتب عمر إلى عماله ما كتب سدًا للذريعة، ومنعًا للشر والفساد أن يبدأ على يد السلطان، فإنه إن ظهر في هذا المكان فسدت الأمة، وضاعت الأمانة بين الناس، فالناس على دين ملوكهم، فإذا فسد الملوك فسدت الرعية، وساد الشر، وانحسر العدل، وهل بديل الأمانة غير الخيانة؟

وإذا خان أفراد الأمة بعضهم فغشوا ولم ينصحوا، وخافوا من الظالمين فلم يفصحوا

(١)أخرجه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩ / ٢٠) .

عن شرورهم، بل وساعدوهم عن الحيف والضلال، وزينوا الباطل لهم، وقدموا لهم الهدايا ليجوروا فقل على الأمة العفاء.

وهذا هو الحسن البصري يحذر من كل هذه الشرور بكلمة موجزة جامعة مانعة قال: «إذا دخلت الهدية من باب خرجت الأمانة من الروزنة»[١]، والروزنة الكوة أو النافذة لكأنما ارتبط الزور من القائمين بالأمر بقبولهم للهدية، فتعلقت بها أعمالهم وأحكامهم، إن أُهْدِي إليهم عملوا وقالوا، وإن لم يُهْدَ إليهم ظلموا وجاروا، فصار حالهم في ذلك حال بني إسرائيل: «كان إذا أتى اثنان منهم إلى الحاكم، فكان مع أحدهما رشوة في كمه فيسمع كلامه ويقضي له، فأنزل الله عز وجل: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ﴾[٢]»[٣].

موضع هدية المسؤولين :

وقد أخذ المسلمون الصادقون أنفسهم برفض كل هدية تقدم لهم في مواقع المسؤولية عن شعوبهم، فكانت هديتهم ترد إلى بيت مال المسلمين لتوضع حيث تكون في صالح المسلمين وليست مِلْكًا خاصًا للحكام والمسؤولين.

وما قصة ابن اللتبية مع رسول الله ﷺ عنا ببعيدة، ولذا كان المسؤولون من المسلمين يبتعدون عن كل ما يثير حولهم الريبة، ولو قدم إليهم على سبيل الهدية، وكانوا يعدونها رشوة مقنعة، غُلِّفَتْ باسمٍ مقبول، ليزيل عنها وصمة العار التي تلاحق صاحبها، بل وكان بعضهم حينما يترك منصبه يكون قد افتقر، وتقطعت بينه وبين الناس الروابط؛ لأنه لا يماري في الحق ، ولا يجامل فيه أحدًا.

وهذا عمر بن خَلْدَة الزرقي تولى قضاء المدينة سنة اثنتين وثمانين من الهجرة النبوية، وكان مهيبًا صارمًا عفيفًا، لم يرتزق على القضاء، فلما عُزِلَ قيل له:

يا أبا حفص كيف رأيت ما كنت فيه؟

---

(١)انظر: أخبار القضاة، لوكيع (١/ ٥٦)، المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر .

(٢)المائدة: ٤٢ .

(٣)انظر: السابق (١/ ٥٤، ٥٥) .

قال: «كان لنا إخوان فقطعناهم، وكانت أريضة (قطعة أرض صغيرة) نعيش منها فبعناها وأنفقنا ثمنها»[(١)].

وهكذا يكون الحرص على العدل، ونشره بين الناس، بالابتعاد عن كل ما يريب ولو جرّ ذلك فقرًا، وأحدث بين الناس والمسؤولين قطيعة.

(١)انظر: أخبار القضاة (١/ ١٣٣).

(١١)
جريمة الربا

جريمة مخيفة الجزاء :

جريمة من الجرائم التي حرّمها الدين، وكبيرة من الكبائر تشيع في مجتمع المسلمين، فتنشر بينهم أضرارًا وأخطارًا تكاد تقضي على فضائل الحب والرحمة والتعاون والتكافل، فيعيش الناس في مجتمعهم وحوشًا ضارية، وأسدًا كاسرة، يأكل فيه القوي الضعيف، ويطحن فيه الغني الفقير، وتموت فيه الكرامة، وتظهر فيه القسوة والصرامة.

إنها جريمة الربا التي يقف أمامها قانون الناس عاجزًا، ولكن قانون رب العباد يأخذ بتلابيبها، ويبعد شبحها عن المسلمين، فتتآلف القلوب، وتتوثق الأواصر، ويتعاون الناس ويتراحمون في البأساء والضراء.

والمسلم الذي يأخذ القرآن بمجامع قلبه، ويملك عليه فؤاده يفرّ من هذه الجريمة فراره من أسدٍ ضارٍ، أو مرضٍ خبيث منتشر، ويرى بعين المقت، وقشعريرة الجلد مصير المرابين، وهم يقومون من قبورهم يوم القيامة يتخبطون تخبط المصروع الذي أصابه جنون من مس الشيطان، فهو يقوم قيامًا منكرًا يتعثر ويقع لأنه لا يستطيع أن يمشي سويًّا، فما كان من قبل في معاملاته ـ سويًا.

« إن الله أربى في بطونهم (المرابين) ما أكلوا من الربا فأثقلهم، فصاروا مخبلين ينهضون ويسقطون، وتلك سيماهم يوم القيامة، يُعرفون بها»[1].

هذا السقوط المريب في اليوم الشديد العصيب، نتيجة كبر البطون، يفسره قول الرسول الكريم ﷺ : «أتيت ليلة أُسري بي على قوم، بطونهم كالبيوت، فيها الحيات تجري من خارج بطونهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟

قال: هؤلاء أكلة الربا »[2].

---

(١)روائع البيان تفسير آيات الأحكام (١/ ٣٨٧).

(٢)أخرجه ابن ماجة (٢٢٧٣)، وقال في الزوائد: «في إسناده علي بن زيد بن جدعان، ضعيف»، وضعفه

وهذا التخبط لأكلة الربا وقيامهم وسقوطهم، وكبر بطونهم يوم القيامة يتبعه عذابٌ أشد، حينما يفتحون أفواههم فيلقمون فيها حجارة، كما أخبر بذلك الرسول الكريم في حديث المنام الطويل المروي عن سمرة بن جندب: «فأتينا على نهر ــ حسبتُ أنه كان يقول أحمر مثل الدم ـ وإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة ، فيفغر له فاه، فيلقمه حجرًا، فينطلق يسبح ثم يرجع إليه، كلما رجع إليه فغر له فاه فألقمه حجرًا، وذكر في تفسيره: أنه آكل الربا»[1] .

هذا الجزاء الشنيع؛ لأنهم لم يقبلوا شرع الله، ولم ينفذوا أوامره، وهَوَّنوا الأمر على أنفسهم فقالوا ما حكاه عنهم القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾[2] ، فجعلوا الربا أصلاً، والبيع فرعًا منه، في أن كليهما يحقق ربحًا وفائدة، مع أن الله ـ سبحانه ـ قال : ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾[3] .

معالجة حكيمة :

وقد مرت حرمة الربا ــ كما مرت حرمة الخمر ــ بمراحل عالج فيها الإسلام النفوس معالجة رقيقة رفيقة؛ لأنها كانت قد تشربت حب الخمر واستعذبت مال الربا حتى استقر الأمر بالحرمة المؤبدة لهاتين الجريمتين، فخلا منهما مجتمع المسلمين، الذي ينبغي أن يعيش في يقظة لا يغيب عنها العقل، وفي مرحمة لايفتك بها الربا. وقد جاء التنفير من الربا في قول الله ــ سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾[4] .

والآية ـ وهي مكية ــ تحث على الصدقة، وتنفر من الربا ؛ لأن الله ـ سبحانه ـ

الألباني، وأحمد (٢/ ٣٥٣)، وضعفه شعيب الأرناؤوط.

(١)أخرجه البخاري (٧٠٤٧)، ومسلم (٢٢٧٥).

(٢)البقرة: ٢٧٥ .

(٣)البقرة: ٢٧٥ .

(٤)الروم: ٣٩ .

يضاعف الحسنات على الصدقات إن أريد بها وجه الله، وطُلِبَ بها رضاه، وأما أموال الربا فهي وإن زادت في نظر الناس لا تزيد عند الله بل ولا قيمة لها.

وما ليست له عند الله قيمة لا اعتبار له عند المؤمنين الذين يتلون من كتاب ربهم ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [1] ، والذين يتلون من كتاب ربهم: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (١٦) وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ (١٧) ﴾ [2] .

ثم زاد هذا التنفير ، واشتد على المرابين النكير، حينما بيَّن الله في كتابه أنه عاقب قومًا، فحرّم عليهم بعض الطيبات التي كانت حلالاً، لارتكابهم جرائم، منها أنهم أكلوا الربا وقد نُهوا عنه، فأكلوا أموال الناس بالباطل، قال سبحانه:

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١) ﴾ [3].

والمؤمن بحسه وشعوره القريب من الله يبتعد عن الربا؛ لأن الله لا يحب هذا الربا للمؤمنين، فكان التنفير الشديد من الربا في هذه الآية واضحًا جليًا.

ثم جاءت آية ثالثة تحرّم ما يطلق عليه الربا الفاحش كما جاء ذلك في كتاب «روائع البيان» وهي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) ﴾ [4] .

وقد بينت الآية استفظاع جريمة الربا وكشفت مدى فحشه وقبحه، فقوله: ﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ﴾ ليس شرطًا ولا قيدًا، وإنما هذا القول لبيان فحش مرتكب الربا، وعظم جرمه.

ثم كان النهي الصريح الواضح الذي لا لبس فيه: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾ [5]،

---

(١)النحل : ٩٦ .

(٢)الأعلى : ١٦، ١٧ .

(٣)النساء : ١٦٠ ، ١٦١ .

(٤)آل عمران : ١٣٠ .

(٥) البقرة :٢٧٥.

وجاء التهديد الشديد، والوعيد الأكيد بأن من يأكل الربا يُعَرِّض نفسه لحرب الله ورسوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: يُقال يوم القيامة لآكل الربا: « خذ سلاحك للحرب، فأي خزي وعذاب يلحق المرابي حينما يقف يوم الدين، وهو يُنَادَى عليه: خذ سلاحك للحرب» .

وأي حرب؟ ومع من؟ وأين تقع؟ إنها زواجر نضعها أمام المرابين ليعودوا إلى ربهم ويتوبوا إلى الله من جرمهم، وحينئذٍ ﴿فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾.

لا تراحم مع الربا :

وبتلاشي هذه الجريمة ينفسح الباب أمام المتراحمين والمتعاطفين من المسلمين، ليزرعوا في المجتمع الإسلامي الرحمة بالصدقة التي يربيها الله ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾[2]. يربيها إن عاجلاً وإن آجلاً، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «ما تصدق أحد بصدقة من طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ إلا أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت تمرة فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فَلُوَّه[3] أو فصيله[4]»[5].

وبإنظار المعسرين أو وضع الدَّين عنهم، تزول الغضاضة والكراهية، وتحل المرحمة والمحبة، فتتآلف القلوب، وتطمئن النفوس، ويسعد الجميع بشرع الله ودينه في الدنيا والآخرة.

(١) البقرة: ٢٧٨ ، ٢٧٩ .
(٢) البقرة: ٢٧٩ .
(٣) فُلُوَّه : أي فرسه الصغير
(٤) الفصيل : ولد الناقة أو البقرة بعد فطامه وفصله عن أمه.
(٥) أخرجه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤).

(١٢)
الحرص على المكارم

« ومات قومٌ وهم في الناس أحياء » :

مكارم الأفعال ، ومحاسن الأقوال تسر الناس جميعًا على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم؛ لأنها من فطر النفوس، التي فطر الله الناس عليها، فما من إنسان سوي يسوؤه عمل عظيم، أو قول صادق سليم، بل إن الناس يظلون يتحدثون بمكارم وخلال قد مات أصحابها، وبقيت آثارهم تدل عليهم وترشدهم إليهم؛ لأنها استقرت في القلوب، ورسخت في النفوس، جيلاً وراء جيل.

وهل من المثقفين اليوم من لا يذكر حاتم الطائي وكرمه؟

وهل بين من له إلمامٌ باللغة العربية من لا يُعجب بحلم الأحنف بن قيس؟

فمكارم الأخلاق ، وجميل الصفات، لا وطن لها ولا زمان، إنها ملازمة للإنسان يحبها ويعشقها، ويعلي من شأنها أصحابها، وينفر ويضيق بمن يتخلون عنها، ولا يتمسكون بها، فالمكارم يحيا أصحابها وإن ماتوا، والمساوئ يموت بها أصحابها، وإن كانوا فوق الأرض يسيرون.

يقول الشاعر :

قد مات قومٌ وما ماتت مكارمهم   وعاش قومٌ وهم في الناس أمواتُ

وقال آخر :

تلك آثارُنا تدلُ علينا   فسلوا بعدنا عن الآثار

العلمُ والتقوى :

ومن خير المكارم التي يحيا بها الناس، ويعم نفعها البشر العلم والتقوى، فالعلم يوقظ العقول، وينير المدارك، ويرشدك إلى أقوم السبل، وأعظم الغايات، والتقوى تغرس في النفس خصال الخير، وجميل الأخلاق، وبهما معًا يحسن الفرد، وتصلح الأمة، ويشيع العدل، وينتشر الخير.

ومن قديم حرص الناس على أن يتحلوا بالمعرفة والتقوى، وأن يتمسكوا بهما دائمًا حتى أنهم اعتبروا الأوقات التي تمر بهم دون أن يستفيدوا منها علمًا وهدى، واعتبروا هذه الأوقات مهدرة لا تعد من حياتهم، ولا تُحسب في أعمارهم.

إذا مَرَّ بي يومٌ ولم أستفد هدًى ولم أكتسب علمًا، فما ذاك من عمري

وعلى الناشئة أن يدركوا ذلك وأن يعلموه، ليسيروا على الدرب، ويرتفعوا بأنفسهم، وأعمالهم الكريمة، وأخلاقهم الحميدة، فوق عامة الناس، ليكونوا منارًا يهد ي السائرين والسالكين.

فليأخذ الشباب أنفسهم بالعزائم، وليهذبوا أخلاقهم، ويتحلوا بالمكارم ليكونوا أهلاً لما ينتظرهم في المستقبل، ويحققوا ما يعقد عليهم من آمال.

قد هَيَّأوك لأمرٍ لو فَطِنْتَ له فاربأ بنفسكَ أن ترعى مع الهملِ

قدوة تُحْتَذَى:

ومن جميل ما يُروى أن خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز كان يمر ــ وهو خليفة ـ في المسجد، فداست قدمه ـ عن غير قصد ـ أحد الجالسين، فقال له: أأنت أعمى؟ يوبخه بهذا القول، ويبين له سوء فعلته التي وقع فيها، ولم يكن هذا الجالس يعرف أنه يخاطب الخليفة الذي ملأ الأرض عدلاً، بعد ما مُلِئت جورًا، فما كان من الخليفة الراشد إلا أن أجابه بكلمة واحدة هي: لا.

وأراد أحد السائرين مع الخليفة أن يشي له بسوء ما قال هذا الرجل، ولكن الخليفة أسكته بقوله: «إنه سألَ وأجبتُ».

لم يكن هذا الخليفة تشغله سفاسف الأمور ـ ولو تعلقت بشخصه ــ ولكن شغلته المعالي فارتقى بنفسه، وارتقى بالأمة معه، فقد كان ـ رحمه الله ـ حسن الأخلاق، كريم الفعال.

(١٣)
الضعيف في المجتمع الإسلامي

حقوق مصونة :

من سنة الله في خلقه أن رفع الناس بعضهم فوق بعضٍ درجات، وجعل بينهم تفاوتًا في الرزق والمنح والأعطيات، ومن بين نعم الله عطايا أدركها الناس وعرفوها، أو غفلوا عنها فجهلوها، وتكاد هذه السمة تلازم كل جماعة إنسانية لا تتخلف عنها، وهل ينكر إنسان أن في كل مجتمع إنساني الفقير والغني، والكفور والتقي، والبار والفاجر، والقوي والعاجز؟

لا ينكر ذلك من فيه مُسْكَةٌ من عقل، وكيف ينكر هذا، والله يقول: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ ﴾[1] . وحين نقرر ذلك ونؤكده، نقرر معه أيضًا أن الاختلاف بين المجتمعات في نظرتهم إلى هذا التفاوت في الأرزاق واسع مديد، وينفرد مجتمع المسلمين عن غيره من المجتمعات الإنسانية بأن حقوق الجميع فيه محمية، وكرامتهم مرعية، فلا فضل لأحد ـ وإن علا ـ على آخر ـ وإن سفل ـ إلا بالتقوى.

ومظلة العدالة السائدة تحمي الضعاف المحرومين من جور الأقوياء الباطشين، بل وتخفف من غلواء الأقوياء والأغنياء، حتى يزول عنهم النزق والاستكبار، «هل تُنصَرون إلا بضعفائكم ؟»[2]. وهذا قول الرسول الكريم ﷺ . وفي مأثور القول : «إن الضعيف أمير الركب » ، وبهذا يتحقق التوازن في المجتمع المسلم فلا يذل ضعيف لضعفه، ولا يُعتدى على إنسان لعجزه، ولا يتغطرس قوي بجبروته على الضعفاء، فالكل في ميزان الله وشرعه سواء، إلا من رفع نفسه بالتقوى وعمل الصالحات.

ضعفاء مكرمون :

وفي مقدمة الضعفاء اليتامى والمساكين، وقد أوصى الإسلام بهما خيرًا، وحذّر من مغبة إهمالهم، لضعف شأنهم، ورقة حالهم، وجعل من يفعل ذلك مُكذبًا باليوم الآخر،

---

(١)النحل: ٧١ .

(٢)أخرجه البخاري (٢٨٩٦)، عن مصعب بن سعد رضي الله عنه .

أو كأنما في حكم المكذبين: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾ [(١)]، والذي يدُعُّ اليتيم هو الذي يقهره ولا يطعمه ولا يحسن إليه. والرسول ﷺ ـ وكل مسلم وراءه ـ منهي عن ذلك بصريح القران الكريم: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ [(٢)].

ومع الزجر الشديد، والتحريم الأكيد لقهر اليتيم، فقد حرَّم الإسلام ظلمه بالاعتداء على ماله، وحرمة الاعتداء على أموال الناس عامة قررها الإسلام وأكدها، ولكنها بالنسبة لليتيم وغيره ممن في حكمه من الضعفاء، كالأرقاء والمجانين والسفهاء حرمة أشد وأعظم، صورها القرآن الكريم تصويرًا يخيف الجائرين، ويرد الظالمين المعتدين، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [(٣)].

ويتجلى هذا التحذير والتخويف في هذه الآية إذا ما تلونا الآية السابقة لها في كتاب ربنا، تلك التي تشد القلوب لتحنو على الصغار، وتخيف الكبار ـ إن جاروا أو اعتدوا على الضعفاء ـ بصغارهم الذين يمكن أن يكونوا في مثل هذا الموقف الشديد وقعه على النفوس، قال سبحانه: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [(٤)].

وقد بيَّن الإسلام أن خلط الأوصياء ـ وهم أقوياء ـ أموالهم بأموال اليتامى والضعفاء، لأخذ ما يحبون وترك ما يكرهون هو ظلم عظيم، وإثم مبين، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [(٥)]، أي إثمـًا عظيـمـًا.

---

(١) الماعون: ١ ـ ٣.
(٢) الضحى: ٩، ١٠.
(٣) النساء: ١٠.
(٤) النساء: ٩، ١٠.
(٥) النساء: ٢.

ومن الإثم الذي بيَّنه الإسلام في حق اليتامى، وشدَّد عليه، والناس ـ عادة ـ يتساهلون فيه: صداق اليتيمة، فإن لم تأخذ مهر مثلها فأولى بوليها أن ينكح غيرها، والنساء كثر مثنى وثلاث ورباع بغير زيادة، قال سبحانه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ... ﴾(١).

ولقد أجابت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عروة بن الزبير حين سألها عن هذه الآية، قالت: «يابن أختي، هذه اليتيمة تكون في حِجْرِ وليها وتشركه في ماله، ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها مِنْ غير أن يقسط في صداقها، فيعطيها ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن»(٢).

وقد جرت عادة الناس أن يتساهلوا في مهور اليتامى والمساكين والفقراء المعدمين، ولكن الدين الحنيف يقرر العدل أينما كان، ويرفع الإصر عن كاهل العجزة، ويزيل من نفوسهم الوحشة، فيعلي مكانتهم ومكانة من يكفلونهم إن أحسنوا، وتوضع مكانة الكفلاء إن هم أساؤوا.

قال ﷺ: «خيرُ بيــت في المسلمين بيتٌ فيه يتيم يُحْسَنُ إليه، وشرُّ بيتٍ في المسلمين بيتٌ فيه يتيم يُساءُ إليه»(٣).

بل إن الرسول الكريم ﷺ يُعلي من مكانة كافل اليتيم علوًا عظيمًا يكاد يقترب في درجته من درجة النبيين حين قال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا»، وأشار بالسبابة والوسطى وفرَّج بينهما شيئًا(٤).

والإسلام وهو يعز هذه النفوس الضعيفة، ويُعلي من قدرها حتى لا تشعر بذل

(١) النساء: ٣.

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير (١/ ٣٥٦).

(٣) أخرجه ابن ماجة (٣٦٧٩)، من حديث أبي هريرة، وقال البوصيري في الزوائد: «هذا إسناد ضعيف، يحيى بن سليمان ـ أبو صالح ـ قال فيه البخاري: منكر، وقال أبو حاتم: مضطرب الحديث، وذكره ابن حبان في الثقات»، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (١٦٣٧).

(٤) أخرجه البخاري (٥٣٠٤) عن سهل رضي الله عنه.

وهوان ـ بعد فقد الأب ـ بل تشعر بعزٍ واطمئنان في جانب الكفيل الذي يحسن ولا يسيء، ويضمن لنفسه بذلك درجة في الجنة تقترب من درجة النبي فهو حريص على الإحسان، يتقرب بذلك للرحمن، الإسلام وهو يفعل ذلك يوصي بإطعام المحتاجين ـ ومنهم اليتامى ـ ويجعل الإطعام طريقًا لعتق الرقاب من النار، وتخطي الصعاب: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾[1].

ويجعل الإسلام الباذلين أموالهم للضعفاء أبرارًا، يشربون من عيون الجنة جزاء عملهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾[2].

إن اليتامى في الإسلام نفوسٌ تُعَزُّ ولا تُذَلُّ، ويُبْذَلُ لها الطعام عن طيب خاطر ابتغاء مرضاة الله، ويقوم الكفيل بإصلاح اليتيم بتربيته والاعتناء بتنميته وتجنب مخالطته مع الحذر من ظلمه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ﴾[3].

ومع عزة اليتيم، وبذل الطعام له، وإصلاح نفسه وشأنه كله، يأتي النهي عن أكل أموالهم، بل ويأتي الأمر لكافل اليتيم، وهو الذي تكلف جهدًا ووقتًا في إصلاح حاله ـ يأتيه الأمر من الله أن يستعف عن مال اليتيم إن كان غنيًا، ويبيح له الإسلام أن يأكل من ماله بالمعروف ـ إن كان فقيرًا ـ مادام قائمًا بإصلاح أموال اليتيم وتنميتها التنمية المقبولة الصحيحة، قال تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾[4].

---

(١) البلد: ١١ ـ ١٦.
(٢) الإنسان: ٥ ـ ٩.
(٣) البقرة: ٢٢٠.
(٤) النساء: ٦.

دفع الأموال لأصحابها :

ومع هذا التقدير والإعزاز الذي ينمو ويزداد مع اليتيم حتى يبلغ الحلم ويصبح رشيدًا (يحسن التصرف في الأموال والصلاح في الدين)، يجيء الأمر الكريم بدفع أموالهم إليهم، فقد أصبحوا قادرين على أن يكونوا رجالاً يُحسنون، وأعضاء في المجتمع الإسلامي يعملون، قال سبحانه: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ .... ﴾[1]، مع إشهاد بعض العدول على ذلك إبراءً للذمة بأن من رعى هذه النبتة حتى ترعرعت واستوت على سوقها، وصارت قادرة على أن تؤتي أكلها، من فعل ذلك لا يأخذ أجره من اليتيم، وإنما يأخذه من الرحمن الرحيم، بعدما أوجد بين المسلمين عضوًا ناميًا قويًا فعالاً امتلأ قلبه حبًا ورحمة، فقد تشربهما وهو صغير، ويحس بهما، ويفيضان عنه وهو كبير.

(١) النساء : ٦ .

(١٤)

نجاح النصيحة وحالاتها

طريق الحق:

لا قيمة لنصيحة يشوبها الغش والخداع، وتحمل في ثناياها المكر للمنصوح له، أو التزلف إليه..

ولا قيمة لنصيحة لا تقوم على الحق، وتلتزم بالصدق، وكم من كلمة حق منعت ظلمًا، وأحيت أممًا، وكم من كلمة عمادها الباطل ضلت وأضلت، وأشاعت في الناس خرابًا ودمارًا.

وقد تحمل الكلمة وجهة نظر خاطئة، يجافيها الصواب، ويباعد بينها وبين الحق؛ لأنها تنظر من جهة واحدة، ومن زاوية خاصة، فلا ترى كل ما تريد أن تراه، ومن ثم قد تعبر عنه بما يأباه الحق ولا يرضاه، وعلى كل من سمعها وفهم غرضها، وعرف مبعثها ومبتغاها أن يبين وجه الحق، ويرشد إلى الصواب، ويكشف النقاب عن جميع الزوايا، ويحيط بكل الجهات، ليكون لكلمته التي ترتكن إلى الحق، وتقوم على الصدق منفذ للقلوب، وحجة للعقول، وإليك دليل ذلك:

قال المنصور: صدق الذي قال: أجع كلبك يتبعك، وسمنه يأكلك.

فقال له أبو العباس الطوسي: أما تخشى يا أمير المؤمنين إن أجعته أن يلوح له غيرك برغيف فيتبعه ويدعك؟[(١)] .

والمنصور وهو يقول ذلك، إنما يستند إلى قول يود أن يسوس به الرعيّة، فيحملها ـ عامدًا ـ على الضيق وشظف العيش، فذلك يخضعها له، ويطوعها لبنانه، وإن فعل عكس ذلك لاقى منها ما قد يسوء ولا يسر.

ويأتي كلام الطوسي يبين جور ما يود المنصور أن يأخذ به الناس، ويكشف عن فساد الرأي الذي استند إليه، وأن هذه السياسة التي يود الخليفة المنصور أن يطبقها قد تضر أشد الضرر، وتوجه الناس للثورة على الحكام، لما نالهم منهم من مظالم فيجرون وراء

(١)العقد الفريد (١/ ٦) .

أول ناعق، ويؤيدون كل ثائر.

والمنصور في قوله ذلك إنما يكشف عن سياسة مستقبلية يفرضها على الناس، والطوسي وهو من الرعية ما قَبِلَ من الخليفة المنصور قوله، بما سيترتب عليه من فعل، وإنما رده إلى الحق، وبيَّن خطل الرأي، وضلال الاتجاه، وأرشد إلى الصواب الذي ينبغي على الخليفة أن يقوم به، وهو تحقيق الحياة الكريمة للناس، فذلك أدعى للاطمئنان، والتمسك بالخليفة حاكمًا، وعدم الخضوع إلى دعاة الثورة والفساد.

وهكذا تكون النصيحة إرشادًا إلى الحق، وأخذًا بالصدق، ووقوفًا في وجه الظلم، وعدم قبول الخطأ، ولو صدر من كبير الحكام، وسادة الزمان، ومدافعة الشر عن الناس في جميل بيان، وحسنِ خطاب، وقوة حجة، فيكون للنصيحة سحرها، ولها أثرها.

مواصفات الناصح الناجح:

ولابد أن يكون الناصح ـ في كثير من الحالات ـ متحليًا بحسن التصرف، وجميل التلطف، فقد يجد نفسه مرفوضًا عليه أن يدلي برأيه، وأن يعلن ما يخفيه، وفي إعلانه ما لا يرضي المنصوحين، بل وما يجلب سخطهم، ويثير حفيظتهم، وقد يلحق الناصح ـ من وراء النصيحة ـ ظلمٌ شديد، وجورٌ مديد، إن لم تدركه الألفاظ، وتساعده القريحة، ويواتيه البيان، فيصدع بالحق، وينطق بالصدق، من غير أن يجلب لنفسه عند الناس ضررًا، ولا يجلب لها عند الله إثمًا وزورًا، فقد قال حقًا، ونطق صدقًا، ونصح مخلصًا، وسلم في دنياه، وغنم في أخراه، ولم يسكت عن جور، وهذا لا يتأتى لكثيرٍ من الناس، ولا يتمكن منه إلا قلة آتاها له حظها من الذكاء والفطنة، فنصحت وسلمت.

وهذا عبدالله بن الزبير الصحابي الجليل يذكر له معاوية ـ رضي الله عن الجميع ـ بيعة يزيد، وكأنما يود بذلك أن يستنطقه فيظهر مكنون نفسه، وخبيء قلبه حول هذا الأمر، وابن الزبير لا يرضى ببيعة يزيد، ولا يقبل، ولا يحب أن يُغْضِب معاوية برفضه الصريح، ولفظه الفصيح، وهو كذلك لا يحيد عن الحق، ولا يقول غير الصدق، وبين المسلمين من هو أقدر من يزيد على تسيير دفة الحكم والقيام بشؤون الخلافة.

موقفٌ دقيق لرجلٍ قديرٍ بليغ، قال عبدالله بن الزبير: «إني أناديك ولا

أناجيك، إن أخاك من صدقك، فانظر قبل أن تُقْدِم، وتَفَكَّرْ قبل أن تَنْدَم، فإنَّ النظرَ قبل التَّقَدُّم، والتَّفَكُّر قبل التَّنَدُّم».

فقال معاوية: «إن من دون ما سجعت به على أخيك ما يكفيك، ثم أخذ بيده وأجلسه معه على السرير»[١] .

فنصح وصدق، وقال رأيه في بلاغة يفهمها الفطناء، ويعرفها البلغاء، وتلقاها منه الفطن الألمعي معاوية، فعرف رأيه، وأدرك موقفه، وقبله منه ؛ لأن النصيحة لم تكن فيها جفوة، ولا بها غلظة.

وأصرح في إيصال المعنى من هذا المثل وأوضح ما حدث للأحنف بن قيس في مجلس معاوية، وقد تحدث الناس في أمر البيعة ليزيد، والأحنف ساكت لا ينطق، صامت لا يفصح.

وسأله معاوية: لم لم تتحدث؟

قال: يا أمير المؤمنين، أخافك إن صدقتك، وأخاف الله إن كذبتك[٢] .

فهو إن أَيَّد البيعة ليزيد كذب، ولا يحب أن يكون من الكاذبين ؛ لأنه يخاف رب العالمين، وإن رفض البيعة ليزيد صدق، وخاف من عقاب أصحاب السلطان، ولكنه على كل حال كشف رأيه، وأظهر قوله، وأعلن أن خوفه من الله يحميه من أن يكذب، وقد أظهر بهذه المقولة موقفه في صراحة ووضوح من غير جفاء، ولا غلظة يستحق بها البطش والسطوة، فسلم بعدما نصح.

ناصحون لا يفزعون :

وليس بلازم أن تكون النصيحة دائمًا على هذه الصورة، فتلك إحدى صورها، وحالة من حالاتها التي يرضى بها كثير من الناس، وتوافق الطباع التي تجزع، والنفوس التي تفزع، وهي مع هذا تستمسك بالحق والصدق.

ولكن المواجهة المحتدمة، والنصيحة المضطرمة في صراحة ألفاظ، دون مواربة ولا

(١)البيان والتبيين ، للجاحظ (١/ ١٥٩)، دار صعب، بيروت، طبعة ١٩٦٨م.

(٢)البيان والتبيين ، للجاحظ (١/ ١٢٠).

مجاملة لها كذلك فرسانها وأربابها، لا يخلو منها عصر من العصور، أو مصر من الأمصار، وإن كان أبطالها قليلين؛ لأنهم لا يسلمون من الأذى، ومع ذلك لا يستسلمون.

ها هو ذا الحسن البصري يستدعيه عمر بن هبيرة بعدما ولاه يزيد بن عبدالملك العراق، ويستدعي معه الشعبي وابن سيرين والثلاثة من أئمة التابعين، ليسألهم عن أشياء يطلبها يزيد بن عبد الملك، وهو إن أطاعه فيها أغضب الله، وإن عصاه فيها أغضب الخليفة.

فيقول: هل ترون لي في متابعتي إياه فرجًا؟

ويجيب الشعبي وابن سيرين بكلامٍ فيه مداراة.

ويقول له الحسن: يا عمر بن هبيرة ، إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبدالملك، ولا يعصمك يزيد بن عبد الملك من الله... يا عمر بن هبيرة إن تك مع الله في طاعته كفاك بائقة يزيد بن عبد الملك، وإن تك مع يزيد بن عبد الملك على معاصي الله ، وكَّلَكَ الله إليه.

فبكى عمر وقام بعبرته [1] .

فَسَلِمَ من السلطان بالحق الذي صدع به، وهذا لونٌ آخر من النصيحة يؤديه الشجعان، ويقوم به من لا يخافون في الله سطوة السلطان.

---

(١) الزهد، للحسن البصري (ص ٧٤)، دار الحديث، مصر ، نقلاً عن: الدولة الأموية، للصلابي (٢/ ٢٨٣)، دار المعرفة، ط ١ ، ٢٠٠٥م.

(١٥)
في تربيـة الإسـلام الشفاء من الأمراض

شرع الله أمان للناس :

يقول الله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤ ﴾[1] .

تلقى البشـرية من الأحـــداث ما يهز كيانها، ويزيل عن فطـرتها الغبــش، ويبـين لها أن شرع الله فيه الشفاء ـ إن اتبعته ـ من أسقامها، والعلاج مـن أدوائهـا، ولكنهـا سـادرة في غيها لا ترعوي، ولا ترجع عن الضلال والغـي والفساد، ومـا الأمـراض المنتشرة في الغرب ـ اليـــوم ـ من الإيدز وغيرها إلا دليلاً على ما نقـول، ومـا الفتن التـي تحدث في الشرق والأحداث من خطف الطائرات وغيرها إلا دليلاً على ما نقول.

ولهذا فقد وجب على المسلمين أن يطبقوا شرع الله بكـل جوانبـه، وهـم أول المنتفعـين بالأمن والأمـان، والسلامة والإسلام والاطمئنان، إن هم فعلوا ذلـك، فَطُبِّـقَ شرع الله على الحاكم والمحكوم في كل أمـر، وأخذت جوانب الحياة الواقعية للمسلمين تُبنـى عـلى أساس من الإسلام، حينئذٍ يتحقق الأمان، ويسود الخير والاطمئنـان، مـصداق قـول الله ســـبحانه وتعـــالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾[2] .

ومنهج الإسلام في هذا الجانب يقوم أول ما يقوم عـلى كـف الـشر، ومنـع الأذى عـن المسلمين بجميع ألوانه: قولاً كان أم فعلاً، وقد حفظ المسلمون في كل جيـل وكـل أرض بلغها الإسلام عن رسول الله ﷺ فيما رواه عنه عبد الله بن عمرو ابن العاص: «الـمُسـلم

---

(١)المائدة: ٣٣ ، ٣٤ .

(٢)الأنعام : ٨٢ .

من سلم المسلمون من لسانه ويده، والـمُهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[١].

فالذي استسلم لرب العالمين ينبغي أن يكف عن المسلمين شر أقواله من كذب، وغيبة ونميمة، وشهادة زور، وطعن في الأنساب، وقذف في الأعراض، وسب للمسلمين، وجدال وشقاق، ورياء ونفاق، وينبغي أن يكف عن المسلمين شر أعماله، فلا بغي ولا جور ولا بطش ولا إخافة، ولا قطع سبيل، ولا اغتصاب حق.

وكيف لا يكون المسلم كذلك وهو الذي اتَّبَعَ أمر الله، واجتنب نواهيه، واقتدى بالرسول ﷺ ؟ والله سبحانه لا يأمر إلا بالعدل، قال تعالى: ﴿ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ ..﴾[٢].

وهذا يقتضي تحقيق العدل الذي هو في أبسط صوره ألا يجاوز كل امرئ حقه الذي شرعه الله له، فإن زاد عن ذلك فقد اعتدى وجار: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ ....﴾[٣]، ولو كان هذا التعدي على حيوان أعجم، فعن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ أن رسول الله ﷺ قال: «عُذِّبت امرأة في هِرَّة حبستها حتى ماتت جوعًا، فدخلت فيها النار، قال: فقال ـ والله أعلم: «لا أنت أطعمتها ولاسقيتها حين حبستيها، ولا أنت أرسلتها فأكلت من خشاش الأرض»[٤].

فمن اعتدى على مسلم بلسانه فكأنما هو قد خرج عن طاعة الله، فعن عبدالله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»[٥]، والسباب: هو الشتم وقذف الأعراض، وهو سبب في الخروج عن طاعة الله سبحانه، وقتال المسلم كبيرة عظيمة الذنب، حتى كأنها كفر بالله العظيم.

وإن اعتدى أحد على مسلم بيده، فقد تنكب الجادة، وابتعد عن سبيل المؤمنين، والرسول ﷺ يقول فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه : «من حمل علينا السلاح فليس منا،

---

(١)أخرجه البخاري (١٠)، ومسلم (٤١).
(٢)الأعراف: ٢٩ .
(٣)الطلاق: ١
(٤)أخرجه البخاري (٢٣٦٥)، ومسلم (٢٢٤٢)، عن عبد الله بن عمر .
(٥)أخرجه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤).

ومن غشنا فليس منا»[1] ، أي ليس على طريقتنا وليس على هدينا.

فأساس الحياة في الإسلام يقوم على كف الأذى، ومنع الشر، وعدم التعدي، مع الرحمة والعفو والصفح والتعاون على البر والخير، وترك الإثم والشر.

زواجر رادعة :

ولكن من بين المسلمين من لا يندرجون تحت هذه المظلة العامة التي تظلل المسلمين، لهوًى في نفوسهم، ونفور في طباعهم ، فقد يرتكبون الشر، وينشرون الأذى بالأيدي والألسن، ومن هنا شرع الإسلام لهذه الفئة الباغية ما يصلحها ويُذْهِب الشر من نفوسها، ويردع غيرها من الوقوع في مآثمها، فكانت هذه الحدود التي تمنع هؤلاء من اقتراف الشر، وارتكاب المنكر، ومن بينها حد الحرابة الذي نحن بصدده، فالذين يحاربون أولياء الله المؤمنين بالتعدي عليهم وسلب أموالهم، وترويعهم، لكأنما هم يحاربون الله، وهذا يدل على عِظم جرمهم وشناعة فعلهم، فما عادوا يقدمون للناس إلا ما يضر ولا ينفع، وجزاؤهم الأوحد هو إحدى هذه العقوبات التي حددها الله ـ سبحانه: ﴿يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾[2] .

فعقوبتهم في الدنيا ليست جبرًا عن عقوبتهم الأخروية ﴿لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾ ، وإن كانت هذه العقوبة زجرًا لكل من تسول له نفسه أن يرتكب نفس الجريمة؛ لأن العقوبة أمامه واضحة لا تهاون فيها، فليس من حق بشر كائنًا من كان أن يعفو عن هؤلاء؛ إذ لا يحق للحاكم المسلم أن يصدر عفوًا كما لا يصلح لولي الدم ـ في هذه الحالة ـ أن يصدر عن القاتل عفوًا.

ولن نعدم في مجتمع المسلمين الأولين وقوع مثل هذه الأحداث مرتبطة بعصرها وبيئتها، فقد روى قتادة أن أنس بن مالك حدثهم أن «أناسًا أو رجالاً من عكل قدموا على رسول الله ﷺ فتكلموا بالإسلام، فقالوا: يا رسول الله، إنا أهل ضرع ولم نكن أهل

(١)أخرجه مسلم (١٠١).
(٢)المائدة : ٣٣ .

ريف، واستوخموا المدينة، فأمر لهم رسول الله ﷺ بذود (عدد من النوق لا يبلغ عشرًا)، وراع، وأمرهم أن يخرجوا فيها، فيشربوا من ألبانها، وأبوالها، فلما صحوا وكانوا بناحية الحرة كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعي النبي ﷺ، واستاقوا الذود، فبلغ النبي ﷺ، فبعث الطلب في آثارهم، فأتي بهم، فسمروا أعينهم، وقطعوا أيديهم وأرجلهم، ثم تُرِكُوا في الحرّة على حالهم حتى ماتوا»[1].

والله ـ سبحانه ـ هو الغفور الرحيم، لا يترك لنا أن ننفذ هذه العقوبة في كل حال، بل يبين لنا أن من جاء من هؤلاء المعتدين تائبًا ـ قبل القدرة عليه ـ فليس لنا أن نقيم عليه حدًا أو نقرر له عقوبة، بل إن العقوبة في هذه الحالة تسقط عنه، وفي هذا حث للمعتدين على التوبة التي بها يفتح باب مجتمع المسلمين ليعيشوا أصحاء عاملين، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم، لا يلفظهم المجتمع، ولا تذلهم الكبوة، ولا تخزيهم العثرة.

وقد رُوي أن عليًّا الأسدي حارب، وأخاف السبيل، وأصاب الدم والمال، فطلبه الأئمة والعامة فامتنع، ولم يقدروا عليه حتى جاء تائبًا، وذلك أنه سمع رجلاً يقرأ هذه الآية: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾[2]، فوقف عليه، فقال: ياعبدالله، أعد قراءتها فأعاد عليه، فغمد سيفه، ثم جاء تائبًا حتى قدم المدينة من السحر، فاغتسل، ثم أتى مسجد رسول الله ﷺ فصلى الصبح، ثم قعد إلى أبي هريرة في أغمار أصحابه، فلما أسفروا عرفه الناس، فقاموا إليه، فقال: لا سبيل لكم عليَّ، جئتُ تائبًا من قبل أن تقدروا عليَّ.

فقال أبو هريرة: صدق، وأخذ بيده حتى أتى مروان بن الحكم وهو أمير على المدينة في زمن معاوية، قال: هذا عليّ جاء تائبًا ولا سبيل لكم عليه ولا قتل، قال: فترك من ذلك كله، قال: وخرج عليّ تائبًا مجاهدًا في سبيل الله في البحر ، فلقوا الروم فقربوا سفينته إلى سفنهم فاقتحم على الروم سفينتهم فهربوا منه إلى شقها الآخر، فمالت به

(١)أخرجه البخاري (٥٧٢٧)، والنسائي (٣٠٤)، واللفظ له.
(٢)الزمر : ٥٣ .

وبهم فغرقوا جميعًا[١] .

وهكذا ـ أيها الإخوة المؤمنون ـ يتضح لنا منهج الإسلام في أخذه النفوس بالتربية الصحيحة التي تحول دون إيذاء المسلمين، فإن لم تجد التربية هذه نفعًا ففي الحزم والشدة على المخالفين زاجر لغيرهم من الوقوع في أخطائهم، ثم في عدم التعرض لهم بعد توبتهم قبل القدرة عليهم حث لهم وجذب لنفوسهم لتقلع عن هذه الجريمة، وتفر إلى الله من العقوبة، وبهذا ينصلح المجتمع ويأمن الناس، ويقام العدل، ويسعد البشر.
والحد الذي يسقط عن المحاربين فيسلمون من العقوبة لأنهم جاءوا تائبين قبل القدرة عليهم، إنما هو فيما يتعلق بحق الله سبحانه، وأما حقوق الآدميين من الأنفس والجراح والأموال فلا يسقط عن المحاربين الحد فيها إلا إذا نالوا العفو من أصحابها ومستحقيها[٢] .

(١)مختصر تفسير ابن كثير (١/ ٥١٣).
(٢)انظر: المغني لابن قدامة (١٠/ ١٠)، دار الفكر ، بيروت .

(١٦)
ستر المسلم أمان يعم المسلمين

كف الأذى :

يسعد المسلم في مجتمعه الإسلامي بالأمن والأمان، ويشعر أن المسلمين من حوله جُنَّة حصينة تستره وتحفظ سره، وتصون حرماته ، ولا تعتدي عليه في نفسه، أو ماله، أو عرضه، ولا يخلو امرؤ من المسلمين أن تكون له خصوصيات يرعاها ويحافظ عليها، ولا يحب من الناس أن يطلعوا عليها ويظهروها؛ لأن في إظهارها إساءة لصاحبها، وقد يكون في إظهارها كذلك إساءة لغير صاحبها من المسلمين.

ومن هنا جاء نهي النبي ﷺ عن اغتياب المسلم، أو تتبع عورته، وجاء الوعيد الشديد لمن فعل ذلك بأنه يُعرِّض نفسه لله يكشف ستره، ويظهر عورته.

والعورة هي ما ينبغي ستره، ويقبح كشفه أو ذكره، وهي بهذا المعنى تخرج أن تكون خاصة بعورة الجسد، بل إنها تنتظم كل ما يدخل تحت هذا المعنى الذي ذكرناه.

وقد يطَّلِع بعض المسلمين على عورات إخوانٍ لهم، ويعرفون بعض ما يسوؤهم ـ إن ذكروه ـ وعليهم أن يستروهم، ويحفظوا أسرارهم، ولا يهتكوا أستارهم، لأنهم إن فعلوا ما نُهوا عنه كانوا من المحكومين عليهم بأنهم آمنوا بألسنتهم، ولم يفضِ الإيمان إلى قلوبهم، فهم منافقون أو يقربون من درجة المنافقين حينما يرتكبون ما نهى عنه الرسول الكريم فيما رواه عنه أبو برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته»[1] .

وحين يبتعد المسلمون عما نهى عنه الرسول ﷺ ، تظل الحرمات مرعية، وحقوق الفرد محمية،ونوازع الخير في النفوس متأصلة، وتزول الحزازات، ويُقضى على المناوشات، فيحيا المجتمع سعيدًا في ظلال الأمن والأمان والرضا والاطمئنان، فلا

(١)أخرجه أبو داود (٤٨٨٠)، وقال الألباني: «حسن صحيح»، وأحمد (٤/ ٤٢٠، ٤٢١)، وقال شعيب الأرناؤوط: «صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن».

يعرف الفساد طريقه إلى مجتمع المسلمين، ولا تشيع الفاحشة والرفث بين المؤمنين فيكون ائتلاف القلوب على المحبة موفورًا بين المسلمين، وقد بيّن الرسول الكريم ﷺ ارتباط الفساد بتتبع العورات، فقال لمعاوية رضي الله عنه: «إنك إن تتبعت عورات الناس أفسدتهم، أو كدت أن تفسدهم»[1].

حُرمات مرعيّة:

وأدرك خلفاء المسلمين ذلك فوقفوا عنده في كثير من الحالات، لا يتجسسون ويشيعون بين الناس حب العفو والصفح قبل أن يأتيهم من يجب عليه الحد؛ لأن الحاكم ليس له أن يعفو عمن وجب عليه حد، وثبت بالبينة القاطعة، ولكن لعامة الأفراد أن يستروا على إخوانهم، وأن يعفوا عنهم فيما لهم عليهم من حقوق، قبل أن يصل الأمر إلى الولاة والمسؤولين.

حث على ذلك حكام المسلمين في كثير من الحالات وطبقوه، وبعضهم حينما يتجاوز الحد المسموح له فإنه يتراجع إلى حدود الشرع، وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يعسُّ بالمدينة من الليل، فسمع صوت رجل في بيت يتغنى، فتسور عليه فوجد عنده امرأة وعنده خمر، فقال: يا عدو الله، أظننتَ أن الله يسترك وأنت على معصيته؟ فقال: وأنت يا أمير المؤمنين، فلا تعجل، فإن كنتُ قد عصيتُ الله واحدة، فقد عصيتَ الله في ثلاثًا:

١ ـ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾[2]، وقد تجسستَ.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾[3]، وقد تسورتَ.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[4]، وقد دخلتَ بيتي بغير إذن ولا سلام.

فقال عمر رضي الله عنه: هل عندك من خير إن عفوتُ عنك؟

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٨٨)، وقال الألباني: «صحيح».
(٢) الحجرات: ١٢.
(٣) البقرة: ١٨٩.
(٤) النور: ٢٧.

قال: نعم والله يا أمير المؤمنين، لئن عفوتَ عني لا أعود إلى مثلها أبدًا.

فعفا عنه وخرج من بيته[١].

وقد عفا عمر عنه؛ لأنه في موقفه ذلك يعتبر شاهدًا لجريمة من حقه أن يستر أخاه فيها، وأن يصل به إلى شاطئ الأمان، وأن يطمئن إلى نزوعه عن الجريمة، وبعده عن مواطن الفحشاء، وقد قام عمر بواجبه فنصحه سرًا، ولم يتجبر عليه جهرًا، وينشر جريمته بين الناس، فليس مقصود الشرع تصيد المخطئين، والتشهير بهم في العالمين، فذلك نشر للفاحشة التي وعد الله مرتكبيها ومحبيها بالخزي والعذاب في الدنيا والآخرة، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾[٢].

وليس ستر المسلمين بمانع من نصحهم، والأخذ على أيديهم ممن يستطيع ذلك لمنعهم من الآثام والمنكرات، ولكن الذي لا ينبغي أن يكون بين المسلمين هو نشر أسرارهم وهتك أستارهم، بين الناس فذلك فضيحة لهم لا نصيحة، وقد قال الشافعي رضي الله عنه: «من وعظ أخاه سرًا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه»[٣].

وهكذا يكون المجتمع المسلم ينفي عن نفسه الخبث، ويزيل من مناكبه الفحش والرفث، ويطمئن فيه المسلم على نفسه وماله وعرضه، وقبل ذلك وبعده محبة إخوانه التي بها يلتئم الصف، ويجتمع الشمل، ويقوى البنيان.

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ١٨٢)، ط دار المعرفة، بيروت.

(٢) النور: ١٩.

(٣) إحياء علوم الدين (٢/ ١٦٦)، ط دار المعرفة، بيروت.

(١٧)
الوقت حياة

الحرص على الوقت :

يقول الحسن البصري : « ابن آدم ، إنما أنت أيام، كلما ذهب يومٌ ذهب بعضك»، والحسن بهذا القول يوجِّه الناس إلى الانتفاع بأوقاتهم، ويبين أهميتها لهم، فهي حياتهم، يغيب جزء منها مع مغيب شمس كل يوم، فالوقت حياة لا ينبغي أن تضيع في عبث ، أو لهو، أو غفلة، أو سعي وراء شهوات، أو لقاءات تتم بغير فائدة ولا عائدة، وما أكثر الأوقات التي تضيع من الناس في ثرثرة تافهة، وفكاهة ماجنة، وغفلة لا تنبه منها، وسنة لا يقظة وراءها، فهم قد غبنوا أنفسهم بتضييع أوقاتهم، واستهلاك حياتهم، والرسول ﷺ يقول: «نعمتان مغبونٌ فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»[١] .

والمؤمنون من الناس ينبغي أن يعرفوا قيمة الوقت، فلا يضيعون في مجالسهم الإيمانية أوقاتًا بغير فائدة يستفيدونها، أو حكمة يلتقطونها، أو عظة يعتبرون بها، أو طاعة يؤدونها، فلا تطول بهم المجالس في غير فائدة، فإنهم إن طالت بهم المجالس بغير فائدة فتحوا على أنفسهم أبوابًا للشيطان، وربما وقعوا في محذور يأباه الله ويأباه دينه.

وقد قال الإمام الزهري رَضِوَاللَّهُعَنْهُ: «إذا طال المجلس كان للشيطان فيه حظٌّ ونصيب»[٢] .

ولقد عرف السابقون من أسلافنا قيمة الوقت فحرصوا عليه كل الحرص، ينتفعون به وينفعون، ويوصون ألا يضيع في غير فائدة.

وهذا عالم اللغة الأصمعي يقول: «غدوتُ ذات يوم إلى زيارة صديق لي، فلقيني أبو عمرو بن العلاء، فقال لي: إلى أين يا أصمعي؟ قلتُ: إلى صديق لي، فقال: إن كان لفائدة، أو لمائدة، أو لعائدة، وإلا فلا»[٣] .

---

(١)أخرجه البخاري (٦٤١٢).

(٢)البداية والنهاية (٩/ ٣٥٧)، دار الكتب العلمية، بيروت .

(٣)نزهة الألباء (ص ٣١).

فالمجالس إن خلت من البر والثواب فلا قيمة لها، وقد رأى عمرو بن العلاء أن المجلس يكون لزيادة بر وخير، أو صلة رحم، أو زيارة مريض، أو درس علم، أو غير ذلك مما فيه نفعٌ للفرد وللناس، وإن خلا من ذلك فلا خير فيه، ولا نفع لعاقديه.

على خُطا العاقلين :

والناظر في سير السابقين من الصالحين يجد أن انتفاعهم بالوقت كان عظيمًا، يجمعون الخير، ويفعلون البر، ويجاهدون في سبيل الله، ويتقربون بالعبادات، ويرفضون أخذ شيء من مال المسلمين على عملهم، فقد يقلل ذلك من ثوابهم يوم الدين، هذا عيسى بن يونس «غزا خمسًا وأربعين غزوة، وحج خمسًا وأربعين حجة»، كما قال عنه أحمد بن حباب [(١)] .

وقال عنه أحمد بن حنبل : الذي كنا نخبر أن عيسى سنة في الغزو، وسنة في الحج، فقدم بغداد في شيء من أمر الحصون فأُمِر له بمال فلم يقبله[(٢)] .

« وكان عيسى يسكن الثغر»[(٣)]، وهكذا استغلال الأوقات في تحصيل الخيرات، والتقرب إلى الله بالطاعات، والتعفف عن أموال المسلمين، وزيادة الخير والعلم النافع بين المؤمنين.

وقد حرص العلماء السابقون على أوقاتهم حرصًا عظيمًا، ولهم في ذلك أقوال تكاد تعد من المبالغات، وربما لا يطيقها أبناء عصرنا، ولكنها تبين مدى إدراكهم للوقت الذي تحسب به الحياة.

وهذا أبو الوفاء علي بن عقيل يقول: «أنا أقصر بغاية جهدي أوقات أكلي حتى أختار سف الكعك، وتحسّيه بالماء على الخبز، لأجل ما بينهما من تفاوت في المضغ توفرًا على مطالعة، أو تسطير فائدة لم أدركها فيه»[(٤)] .

وهذا العالم كان يرى حرمة ضياع الوقت، فوقته كله كان في مذاكرة، أو مناظرة، أو

---

(١)تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٤٨).

(٢)تذكرة الحفاظ، للذهبي (١/ ٢٠٥)، دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٣)تذكرة الحفاظ، للذهبي (١/ ٢٠٥)، دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٤)ذيل طبقات الحنابلة (١/ ١٤٥).

مطالعة، ووقت راحته يعمل فيه فكره، فتأتيه الخواطر، فيقوم ليسطرها وينتفع بها وينفع غيره.

وهو القائل : « إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملتُ فكري في حال راحتي، وأنا مستطرح فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطِّره، وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في عشر الثمانين أشد مما كنت أجده وأنا ابن عشرين سنة »(١).

والناس تستسيغ وتقبل أن تضيع منها الأوقات وهي أَنْفَسُ ما يملك المرء، دون أن يشعروا أنهم خسروا شيئًا يُذْكَر، يأسفون على ضياعه، ويندمون على فقده، مع أنهم مُحاسبون أمام الله يوم القيامة عن أعمارهم، والرسول ﷺ يبين أن المرء يُسْأَلُ يوم القيامة عن عمره فيم أفناه؟ ليكشف للمؤمنين نفاسة أوقاتهم، والحرص على استغلالها في الصالحات، والتسابق نحو الخيرات، ومع هذا التنبيه فتفريط الناس في الأوقات، واستغلالها في المعاصي والسيئات أمرٌ لا يحتاج إلى دليل، وهذا ما جعل الوزير يحيى بن هبيرة يأسف كل الأسف على بيان هذه الحقيقة في قوله:

والوقتُ أنفسُ ما عنيتُ بحفظه ... وأراه أسهلُ ما عليك يضيعُ

والإمام محمد بن عبد الباقي من علماء الحنابلة يقول: «ما أعلم أني ضيَّعْتُ من عمري شيئًا في لهوٍ أو لعب، وما من علم إلا وقد حصلتُ كله، أو بعضه، وقد استوت لديه ساعات الضيق، وساعات الفرج فانتفع بكل ، وعلم أن هذه الساعات وتلك من عمره المحسوب وأجله المعدود وقد أسره الروم سنة ونصفًا فتعلم فيها الخط الرومي(٢)، ومعنى ذلك أنه في أسره وساعات ضيقه وكربه تعلم لغة جديدة، نُطْقَهَا وكتابتها.

ولم تكن أوقات هؤلاء العلماء تضيع في ثرثرة تافهة، أو لغو مذموم، أو غيبة محرمة، أو نميمة تجلب فتنة، أو عمل يفسد على الناس أخلاقهم، أو أموالهم، أو أعراضهم، ويقطع الصلات بين المؤمنين، ويقيم الحزازات، وينشر الشبهات، ويثير الشهوات، لم

(١)ذيل طبقات الحنابلة (١/ ١٤٥).

(٢)تاريخ الإسلام، للذهبي (٣٦/ ٣٩٣)، دار الكتاب العربي ، ط الأولى .

تكـن أوقـاتهم تـضيع في ذلـك، بـل اتجهـت إلى معـالي الأمـور، والإصـلاح في الأرض، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والوقوف عند حدود الله، فأرغموا أنف الشيطان، وتلاشى من حياتهم الزور والبهتـان.

وهذا عبد الله بن الخشاب المتـوفى سنـة ٥٧١ هـ يرسـم الطريـق للـسالكين، ويـضع علامات لأصحاب الهمـة المبادرين، يقول: «كن مقبلاً مديـمًا على شؤونك، مشتغلاً بـما أنت بصدده، ولا تكن مضيعًا أنفاسًا معدودة، وأعمارًا محسوبة، واجعل ما لا يعنيك دبر أذنك، وأغمض عينيك عما ليس من حظها، واطلب ما حل لـك، ودع مـا حـرم عليـك، وبذلك تغلب شيطانك، وتحـوز مطالبـك»[١].

وهكذا ينبغي على الناس أن تستغل الأوقات، فلا تضيعها ، ثم تتحسر وتندم على ما مضى وفات.

(١)ذيل طبقات الحنابلة (١/ ٣٣٠).

(١٨)
ضرورة الصبر للمؤمنين

احتياج الدعاة للصبر :

جاء شرع الله ليحكم البشرية في الحياة، يوجهها نحو الخير، ويكفها عن الشر، يأمرها بالطاعات، وينهاها عن المعاصي والسيئات، يحثها على نشر منهج الله في الأرض، ومقاومة مناهج البشر، والبُعد عن الوقوع في كمائنها وشباكها، تلك التي تتسلل إلى النفوس عن طريق الشهوات، والملذات والفتن بالسراء أو بالضراء، فإن لم يُجْدِ ذلك نفعًا، ولم يُغْنِ شيئًا، كان في الشبهات كمائن أخرى تُرصَد للعقول، فتصدها عن دين الله، لتتبع الهوى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [(١)] .

والناس في الأرض طوائف شتى، وملل عديدة، تنشر أهواءها في الظلام، لتجني ثمرة ذلك منفعة مالية، أو مصلحة اقتصادية، أو فكرة قومية، أو نحلة عصبية جاهلية، والمجتمعات البشرية ـ غير الإسلامية ـ تشيع فيها الفاحشة، ويتبلد فيها الحس، وتكثر فيها الدياثة، ويُـمَارَس كل ذلك علنًا بغير خفاء، إذ هو ـ كما يدّعون ـ يدخل في نطاق الحرية الشخصية للفرد!! ومجتمعاتهم حريصة على حرية الأفراد في ذلك المجال، وهؤلاء وأولئك يقفون بالمرصاد؛ ليقاوموا دين الله ونوره،الذي يدحض باطلهم، ويكشف زيفهم، ويظهر أمام الناس إفكهم، وبالتالي فهم يقاومون الدعاة إلى الله ـ حتى في بلاد المسلمين ـ بكل جهد مستطاع؛ ليظل باطلهم زاهرًا، وظلامهم للناس قاهرًا.

ولأجل ذلك وغيره كان «الصبر هو الوصية من الله لكل رسول من رسله مرة ومرة ومرة، ولعباده المؤمنين برسله، وما يمكن أن يقوم على هذه الدعوة أحد إلا والصبر زاده وعتاده، والصبر جنته وسلاحه، والصبر ملجؤه وملاذه، فهي جهاد.. جهاد مع النفس وشهواتها، وانحرافاتها وضعفها وشرودها، وعجلتها وقنوطها، وجهاد مع أعداء الدعوة ووسائلهم وتدبيرهم، وكيدهم وأذاهم، ومع النفوس عامة، وهي تتفصى من تكاليف هذه الدعوة وتتفلت، وتتخفى في أزياء كثيرة وهي تخالف عنها ولا تستقيم

(١)القصص : ٥٠ .

عليها، والداعية لا زاد له إلا الصبر أمام هذا كله»[١].

المؤمنون كلهم محتاجون للصبر :

وليست ضرورة الصبر قاصرة على الدعاة وحدهم، ولكنها لازمة لكل مؤمن في الأرض لتستقيم نفسه على منهج الله، فلا يستسلم لهواه، ولا للفتن المحيطة به، وهي كثيرة عديدة، تأتيه من داخل نفسه، ومن أقاربه الأدنين، ومن الأقارب البعيدين، والجيران المحيطين، والشيطان الذي لا يغفل، والأعداء الذين لا ينامون عن الكيد للإسلام وأهله.

وقد عبَّر عن هذه الفتن خير تعبير الإمام ابن قيم الجوزية حين قال: «كيف يسلم من له زوجة لا ترحمه، وولد لا يعذره، وجار لا يأمنه، وصاحب لا ينصحه، وشريك لا ينصفه، وعدو لا ينام عن معاداته، ونفس أمارة بالسوء، ودنيا متزينة، وهوًى مُـرْدٍ، وشهوة غالبة له، وغضبٌ قاهر، وشيطان مزين، وضعف مستولٍ عليه»[٢].

وجعل الإمام علاج ذلك كله في الالتجاء إلى الله.

ونعم العلاج الذي فيه الشفاء من الأدواء السابقة، ولكن الأمر يحتاج إلى عزيمة أبيَّة، وإرادة قوية يقف بهما على أمر الله حتى يأتيه من الله العون، فتكون النجاة، وإلا كانت التهلكة، ولا إرادة على العمل بالطاعات، وكف النفس عن الشهوات إلا بالصبر.

وبين المؤمنين وفي مجتمعاتهم أقوياء أغنياء قد تطغيهم القوة، ويبطرهم الغنى، فيفسدون ويفسدون، ما لم يكونوا وقّافين على حدود الله، شاكرين لأنعمه، ولن يكون ذلك إلا بالصبر.

وبين المؤمنين وفي مجتمعاتهم، عجزة ضعفاء، قد يغويهم الشيطان، فتنزلق أقدامهم وأيديهم إلى الجرائم، ليسدوا عوزهم، ويقووا ضعفهم، ولا عاصم لهم من ذلك إلا بالوقوف على حدود الله والتزام شرعه، ولن يتأتى ذلك إلا بالصبر.

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٧٤٧).

(٢) الفوائد (ص ٦٤).

وبين المؤمنين وفي مجتمعاتهم محسنون يودون أن يستمروا على إحسانهم، وألا يتراجعوا عنه، حتى لا يكونوا من الخاسرين، ولن يتحقق لهم ذلك إلا بالصبر.

وبين المؤمنين وفي مجتمعاتهم مسيئون يودون أن يُقلعوا عن الإساءة، وأن يتركوا البذاءة والسفاهة، وأن يعودوا إلى رشدهم، ويتوبوا إلى الله من غيّهم، ولن يكون ذلك إلا بالصبر.

ونستطيع أن نقول: إن مظلة الصبر التي استظل بها المرسلون يجب أن يلتجئ إلى ظلها كل مؤمن ليسلم في الدنيا، ويسلم في الآخرة، سواء أكان حاكمًا أم محكومًا، تابعًا أم متبوعًا، ضعيفًا، أم قويًا، فقيرًا أم غنيًا.

الصبر شفاء:

ففي الدنيا ابتلاء ومحن، وفتن وشقاء، وزينة ومتع وشهوات، والصبر هو الشفاء، يقول الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾[1].

وكم كان موفقًا الإمام ابن القيم حين قال: «فالله سبحانه أحكم الحاكمين، وأعلم العالمين، يضع التوفيق في مواضعه اللائقة به، والخذلان في مواضعه اللائقة به، وهو العليم الحكيم، وما أُتي من أُتي إلا من قبل إضاعة الشكر، وإهمال الافتقار والدعاء، ولا ظفر من ظفر بمشيئة الله وعونه إلا بقيامه بالشكر وصدق الافتقار والدعاء، وملاك ذلك الصبر؛ فإنه من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قُطع الرأس فلا بقاء للجسد»[2].

فالصبر ضرورة لكل مؤمن، يُقبل عليه ويرضاه، ويعلم أنه مُثاب عنه أمام الله، والبلاء - في الأرض والحياة - موجود لا محالة، فلا محيص عن الصبر أمام المؤمنين، ولا مجال للتخلي عنه بين المسلمين.

---

(١) البقرة: ١٥٥.

(٢) الفوائد (ص ١٢٨).

(١٩)

أهميـة الصـبر وجـزاؤه وطريقـه

الصــبر ضيــاء :

« ابن آدم لَـتَـصْـبِـرَنَّ أو لَـتُـهْـلَـكَـنَّ » .

هكذا قال الإمام الحسن البصري، وهو يدرك أن النجاة ليست في العافية في البلاء، وإنما هي في الصبر عليه ؛ إذ البلاء سنة من سنن الله مع خلقه، فلا مفر من وجوده والوقوع فيه أحيانًا، وإنما المعافاة الحقة هي في الصبر على مشاق الحياة وملمّاتها، بحيث يتخطاها الإنسان، ويخرج منها لم تنل من دينه، ولم تُضْعِف من إيمانه ويقينه، وهذا يفسر قول الرسول ﷺ : «والصبرُ ضياء»[1] .

أي بالصبر تنكشف الملمات، وتزول المحن والشدائد والكربات، فالصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قُطِعَتْ الرأس فلا بقاء للجسد، ولذا قال رسول الله ﷺ : «ولن تُعطوا عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر»[2] .

فالصبر أعظم النعم بعد الإيمان ، ذلك أنه يغرس في وجدان المؤمن الاستعلاء على شهوات الدنيا وزينتها، والامتناع عن اتباع الهوى والشيطان، والرضا بما قدره الرحمن، من غير سخط ولا ضيق، والصلابة أمام أعداء الله الذين يستخدمون التهديد والوعيد، أو الإغراء بالأموال، والثناء والتمجيد، وكل ذلك من ثمار الصبر في هذه الحياة.

الصبـر عصـمـة :

والمؤمنون وهم يستعلون بالصبر على ذلك كله لا يستكبرون ولا يستنكفون أن يكونوا في ذل العبودية لله خاضعين، أشداء على الكفار، رحماء بالمؤمنين، ذلك لأن الصبر صنع فيهم إرادة قوية، وعزيمة أبيّة، يملك بها المؤمن نفسه، ويسيطر عليها، ويكبح جماحها، فتثبت حين تهب عليها أعاصير الفتن، وعواصف المحن، ورياح الغضب، وآلام المرض، لا يغضب ولا يثور، ولا يضعف ولا يخور، فهو يعلم أنه:

---

(١)أخرجه مسلم (٢٢٣).

(٢)أخرجه البخاري (٦٤٧٠)، ومسلم (١٠٥٣)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

«ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» متفق عليه[١].
ويعلم كذلك أنه «إنما الصبر عند الصدمة الأولى» متفق عليه[٢].

وهذا يتطلب من المؤمن دائمًا وأبدًا أن يكون قائد نفسه لا مقودًا، وأن يكون هواه تابعًا للشرع لا متبوعًا، وأن يكون على حس بطبيعة الحياة، لا تبطره النعم، ولا يضجره الفقر والحرمان والنقم، فالمؤمن الذي يشعر بحب الله ومعيته يدرك ذلك كله ويحققه في نفسه وهو يتلو: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾[٣]، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾[٤].

والمؤمن الصابر الذي تربت إرادته، وقويت عزيمته، يدرك أنه وإن اشتد على الكافرين ينبغي أن يكون رحيمًا بالمؤمنين، يعفو ويصفح، ويحتمل الأذى، ويحتسب الأجر عند الله، فيصنع بذلك محبة لا تزول، ورحمة بين المؤمنين لا تدول.

نجد ذلك في قول الحسن البصري حين تسابَّ رجلان في حضرته، فقام المسبوب وهو يمسح العرق عن وجهه وهو يتلو: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾[٥].
فقال الحسن: لله دره!! عقلها والله حين ضيعها الجاهلون[٦].

وتجد ذلك في قول الله سبحانه: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾[٧].

وفسرها ابن عباس فقال: «أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عندالإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم كأنه وليٌّ حميم»[٨].

---

(١) أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦).
(٣) البقرة: ٢٤٩.
(٤) آل عمران: ١٤٦.
(٥) الشورى: ٤٣.
(٦) الحسن البصري، لابن الجوزي (ص ٢٤).
(٧) فصلت: ٣٤، ٣٥.
(٨) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٢٦٤١).

ولذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «ما عاقبتَ من عصى الله فيك، بمثل أن تطيع الله فيه»[(١)].

ومع هذه الرحمة المبنية على التسامح والعفو من الصابرين القادرين، تجدهم ناظرين دائمًا إلى معالي الأمور وكبارها، لا إلى سفاسفها وصغارها، فصغار الأمور لا تلفت أذهانهم، ولا تأخذ منهم اهتمامهم، فهم يهتمون بكبار الأمور التي تكون في أعينهم صغيرة هينة، وكأني بالمتنبي كان يضع عينه على هذا المعنى حين قال:

وتعظم في عين الصغير صغارها   وتصغر في عين العظيم العظائم

ومن أولى من الصابرين أن يكونوا عظماء تتعلق عيونهم وأبصارهم بعظائم الأمور؟

ولقد رُوي أن رجلاً شتم أبا ذر رضي الله عنه ، فقال أبو ذر له: بيني وبين الجنة عقبة، إن جزتها فأنا خيرٌ مما تقول، وإن عُرِجَ بي دونها إلى النار فأنا شرٌ مما قلتَ، فانْتَهِ أيها الرجل، فإنك تصير إلى من ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾[(٢)]،[(٣)].

فما تعلقت عين أبي ذر رضي الله عنه بكرامته بالشخصية، ولا بظلم من شتمه، ولا بغير ذلك مما ينظر له الناس، وإنما لفت نظر الشاتم إلى أنه متعلق بالنجاة من النار والفوز بالجنة، ولذا فلن يبادل الرجل سبًا بسب، وشتمًا بشتم.

ومع الرحمة والمحبة ، وعلو الهمة، وبُعد النظرة للصابرين، يهيئ الله لهم الخير فيجعل من بينهم أئمة يهدون الناس إلى الحق والخير، ويبعدونهم عن الباطل والشر، وذلك قول الله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[(٤)].

ومع الرحمة وعلو الهمة،والإمامة بين الناس بالحق، يكون في الصبر للصابرين سلامة من شر الأشرار، وكيد الفجار ، والله ـ سبحانه ـ يقول: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟

(١)مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٢٦٤١).
(٢)غافر : ١٩ .
(٣)الحسن البصري ، لابن الجوزي (ص ٢٤).
(٤)السجدة : ٢٤ .

لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾[(١)] .

فالله يُنجي الصابرين، ويحبط كيد أعدائهم، بل ويكتب لهم الغلبة على الأعداء وإن كثروا، وهو القائل سبحانه: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[(٢)] .

وقد حفظ المسلمون قول الله: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾[(٣)] .

ومع ذلك كله وقبله وبعده يكون الصبر وسيلة لتحقيق الكرامة الإنسانية، التي أعلي الله شأنها حين ذكرها في كتابه فقال: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ...﴾[(٤)] .

والصابرون لا يذلون أنفسهم بالشكوى لغير الله، فلا يعلم كثير من الناس ما نزل بهم من البلاء؛ لأن كرامتهم تأبى عليهم أن يشكوا لغير من يرفع الضر عن البائسين، ويزيل الكرب عن المكروبين، وصدق الشاعر إذ يقول:

إلى الله أشكو لا إلى الناس، إنني ... أرى الأرض تبقى والأخلاءُ تذهبُ

وقد استقر في أذهان الصابرين من المؤمنين أن الشكوى لغير الله فيها سوء أدبٍ مع الله، ولذا قال قائلهم:

وإذا شكوتَ إلى الأنـام فإنـما ... تشكو الرحيمُ إلى الذي لا يرحـمُ

لا يشكو الصابرون لغير الله، ولا يُعَرِّضون أنفسهم لمن يمنّ عليهم من عباد الله، ولذا قيل: «الصبر على مسّ الضر، ولا الشرب من شرعة مَنٍّ»[(٥)] .

هذه كلها وغيرها ـ مما لم نحصه ـ حصيلة الصبر في الدنيا، وأعظم بها من حصيلة، فإذا أضفنا إليها حصيلة الصبر في الآخرة لكان الصبر ترياقًا من كل وباء،وشفاءً لكل داء،

---

(١)آل عمران : ١٢٠ .

(٢)الأنفال : ٦٥ .

(٣)البقرة : ٢٤٩ .

(٤)الإسراء : ٧٠ .

(٥)الفوائد (ص ٦٦).

ولوجد الناس في مكابدته لذة، وفي مشقته سعادة.

ولا بأس أن نعرج على جزء أو شيء من حصيلة الصبر في الآخرة، والصابرون عند الحساب «ليس يوزن لهم ولا يُكال، بل يُغْرَفُ لهم غَرْفًا»، هكذا فسَّر الإمام الأوزاعي قول الله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [(١)]، فيكون الصابرون في الجنة تحييهم ملائكة الرحمن بالسلام: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾ [(٢)(٣)].

أليست حصيلة الصبر في الدنيا والآخرة هي بذاتها دافع عظيم ليتخلق الإنسان بهذا الخُلق الإسلامي، ويعض عليه بالنواجذ، وهو يدرك عاقبة الجزاء فيحتمل ما يحيط به من شقاء لابد له أن يلقاه.

طريق الصبر :

وهذا طريقُ تحقيق الصبر لم نبتكره من لدنا، ولم نخترعه من أنفسنا، ولكنا أخذناه من هدي الرسول الكريم ﷺ حينما جاءته امرأة سوداء تشكو وتقول: إني أُصْـرَعُ، وإني أَتَكَشَّفُ فادع الله تعالى لي، قال: «إن شئتِ صبرتِ ولكن الجنة، وإن شئتِ دعوتُ الله تعالى أن يعافيكِ».

فقالت: أصبر.

فقالت: «إني أتكشف فادع الله ألا أتكشف، فدعا لها» [(٤)].

والرسول ﷺ يوجه هذه المرأة إلى الصبر ، ويضع أمامها عاقبته، وهي الجنة، التي تكفي ليتعلق المسلمون بحبال الصبر، ولذا قبلت المرأة أن تصبر وأن تكون لها الجنة، وكان بوسعها ـ وقد خيَّرها الرسول ﷺ ـ أن تختار دعاءه لها بالشفاء، ولكن شفاءها في الدنيا ليس فيه وعد بالوصول إلى الجنة، والصبر على الداء فيه هذا الوعد، فاختارت ما هو مؤكد مع تحمل المشاق والآلام على ما هو غير مؤكد مع السلامة من المشاق والآلام.

---

(١)الزمر: ١٠ .

(٢)الرعد : ٢٤ .

(٣)انظر: مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٢١٥).

(٤)أخرجه البخاري (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦).

والأمر يحتاج إلى دربـة، ويُكتسب بـالمران، والمحاولـة تلـو المحاولـة، حتـى يـصير عـادة، فيسهل على النفس، ولا تكون فيه المشقة.

وذلك ما بيَّـنـه رسول الله ﷺ حين قال: «ومن يتصبر يُصَـبِّـره الله»[(١)] .

فطوبى للصابرين... ومرحى بالمتصبرين.

(١)أخرجه البخاري (٦٤٧٠)، ومسلم (١٠٥٣)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢٠)
ولكنكم تستعجلون

واقعٌ مرير :

بهذه الكلمة : «ولكنكم تستعجلون»[١] يرد الرسول الكريم محمد ﷺ أصحابه إلى الأناة وإلى التروي، الأناة المستبصرة التي تستعلي على الواقع المرير، وترتفع فوق العذاب الأليم، الذي يلحق المستضعفين، وهي أناة المستبصرين، الذين لا يغفلون لحظة من ليل أو نهار عن البناء الذي لا يتوقف ارتفاعه ، بناء الإيمان في نفوس المسلمين؛ ليقوم عليها بناء المجتمع المسلم، وليتم على يديها إظهار دين الله على الدين كله ولو كره المشركون.

إنها ليست أناة الغافلين ، الذين يضيع من أقدامهم الطريق السويّ، ويتراكم على نفوسهم الكسل الغبي، ويشيع في جنباتهم الوهن والدعة والركون للظالمين.

والأناة المستبصرة سمة الأقوياء الذين يستعلون فوق الواقع، وإن اشتد ظُلْمُه، وزاد عَسْفُه وبَغْيُه، وكان واقع المسلمين في بداية أمرهم مريرًا، لم يسلم فيه مؤمن من الإيذاء، ولا أمن فيه مؤمن من البغي عليه والاعتداء، حتى لحق الأذى بالرسول ﷺ وهو من هو بين المؤمنين: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾[٢].

وقد خلق الله الناس متفاوتين في قدراتهم وطاقاتهم وأرزاقهم، فما يستطيعه إنسان قد لا يطيقه آخر، وما يتحمله بشر من الأذى قد لا يصبر عليه كثيرون آخرون، وتلك سنة الله أرادها لخلقه، تجري بينهم ما شاء الله ذلك، وما على الناس إلا أن يعرفوا هذه السُّنَّة مع غيرها من سُنن الله الجارية في كونه ليستريحوا ويريحوا.

وقد صبر بعض المسلمين في مكة على الواقع الأليم، ولكن بعضًا منهم كان يطلب النصرة، وتتطلع نفسه إلى الحماية، ويشتاق إلى عون يأتيه فيحميه من أذى الطغاة الباطشين من الكافرين المشركين.

ويسرع سابق من السابقين إلى الإسلام، بعدما عانى ما عانى ـ مع إخوانٍ له في الله ـ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٤٣) عن خباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٢) البروج : ٨ .

من عذاب المشركين وظلم المعتدين، يسرع إلى الرسول ﷺ ليطلب منه في رفقٍ ولين، يدفعه إليه إيمان مكين، وحب عميق متين، يطلب منه أن يستنصر للمسلمين، وأن يطلب العون للمحتاجين المستضعفين: «ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟».

تربية قويمة :

وهل كان الرسول ﷺ بعيدًا عن واقع المسلمين ؟

وهل كان غير عالم بأذى الظالمين؟

ليس هذا ولا ذاك، ولكنها الأناة المستبصرة التي لا تغفل عن الواقع، ولا تترك البناء الإيماني لحظة من اللحظات، والبلاء والإيذاء في بعض الفترات نار تزيل من النفوس الشوائب والأهواء والأغراض؛ لتخلص هذه النفوس لرب العباد، فينمو فيها غرس الإيمان قويًا فتيًا أبيًا مستعليًا على كل ما يشين، فتتمحص النفوس، وتخلص القلوب، ويزول عنها الران وهكذا تكون النار فيها صفاء للذهب من شوائب أخرى، به تَعْلَق، وإليه تَرْكَن.

ما كان الرسول ﷺ بغافلٍ عن واقع المسلمين، ولا براضٍ عن أذاهم وإيلامهم، ولكنها التربية القويمة للرجال المؤمنين، الذين بعد حين سيحملون نور الله في العالمين، ومع الإحساس بالواقع والاستعلاء فوقه، والأناة المستبصرة، والبناء الإيماني الذي لا يتوقف بكل الأمل الموثوق من تحقيقه، وإشعار الناس بهذا الأمل، وبأن الأمن في ظل الإيمان قادم لا محالة، فسوف يأمن الناس على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم: «والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه»[1] .

إنه أمل في الحياة الحرة الكريمة التي لا اعتداء فيها على أحد إلا بحق، ولا جور فيها على أحد، ولا خوف فيها من ظالم أو غاصب أو معتد، فإن ظل الإيمان ينسى فيه الناس حر الهجير، ودفء الإسلام ينسى فيه الناس قشعريرة الزمهرير.

فكان الاستعلاء على الواقع الأليم، والأناة المستبصرة العاملة في غير غفلة، والأمل

(١) أخرجه البخاري (٦٩٤٣)، عن خباب بن الأرت رضي الله عنه.

القوي الموثوق بقدومه وتحققه، وسائل لا تتخلف لتربية نفوس تعمل فلا تكل، وتُؤذَى فلا تمل، ومع هذا كله تجد غذاء النفوس، وإيقاد الحرارة فيها بالأسوة الحسنة، والأمثلة العظيمة، تجد هذا الغذاء يشبع نفوس الجائعين، ويزيل ظمأ الظامئين: «قد كان من قبلكم، يُؤخذ الرجل فيُحْفَرَ له في الأرض، فيُجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيُجعل نصفين، ويُمَشَّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه»[1].

أفبعد هذه النماذج العليا للتضحية والفداء في سبيل الدين يشكو أحد أو يئن ويتوجع؟

وإنك واجد كل هذه الوسائل التربوية الإيمانية أو بعضها في كل موقف ضاقت فيه النفوس، واشتدت فيه بالمسلمين الكروب، تجد هذه الوسائل - كلها أو بعضها - في الهجرة، وفي غزوة الخندق، وفي صلح الحديبية، وفي غيرها من المواقف والمواقع التي لا يحصرها العد.

ونحن نقول للمسلمين اليوم: « ولكنكم تستعجلون » .

(١) أخرجه البخاري (٦٩٤٣) عن خباب بن الأرت رضي الله عنه .

(٢١)
أسرى في سجن الضلالة والخرافة

عتق من رق الضلالة :

تستولي الأفكار على صاحبها وتوجهه، فيعيش أسيرًا لها، يربط سلوكه في الحياة بها، ومن الأفكار ما يفيد وينفع، ويعلي من شأن الناس، ومن الأفكار ما يضر ولا يفيد، ولا يضيف إلى صاحبه في جانب الخير والنفع جديد، أي جديد.

وقد تتسع أفكار الإنسان فتنفسح أمامه الحياة، ويرى فيها كثيرًا من مسالك النجاة، وقد تضيق الدروب، وتتوالى الخطوب، فيسعد بها الإنسان ويستريح.

وقد تضيق الأفكار بصاحبها فتضيق به الأرض على سعتها، فيراها سجنًا كبيرًا لا مجال للخروج منه، فتتراكم الأحزان، وتتابع الأشجان.

ولعل هذا هو بعض ما أراده القرآن الكريم حين دعا الناس إلى النظر في ملكوت السموات والأرض والسير فيها، والنظر في نشأة الخليقة، وأخذ العبر والعظات مما حلّ بالكافرين من المهلكات، وإلى التفكر والتدبر في كل ما في الكون والنفس والحياة ؛ لتسمو بذلك الأفكار، وترتقي العقول، وتتعالى عن سفاسف الأمور، وتتطلع إلى المعالي، فالعظائم كفؤها العظماء.

وقد أدرك كثيرٌ من المسلمين أهمية النظر والتفكر، لما لهما من عظات شاهدات على قدرة الله، ووجوب شكره، والخضوع لأمره، فوجهوا الناس إلى ما وجههم إليه القرآن الكريم، وهو النظر في السموات والأرض، لينعتقوا من سجن الخرافة، ومحبس الضلالة، ويدركوا حقائق الأشياء فتستريح عقولهم، وتستقيم حياتهم.

هذا الفضل بن عيسى بن أبان يقول: «سل الأرض فقل: من شق أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حوارًا أجابتك اعتبارًا»[١].

وقد تكون الفكرة سببًا في شقاء المرء أو سعادته، بحسب بُعدِها عن الحق أو قربها منه، فالسعادة في الأفكار التي تصل الإنسان بالحق، فتنفسح أمامه الحياة، وتتسع في

---

(١)البيان والتبيين ، للجاحظ (١/ ٨١).

طريقه سبل النجاة، فهو بالحق يتسربل، وبالصدق يتسلح، فيعرف قيمة الحياة وغايتها، ووسيلة تحقيق الغاية فلا يضل ولا يشقى، وبالعكس أصحاب الفكر الضال فهم في حزن لما مضى، وفي همٍّ لما هو آت، وفي غمٍّ لواقع حالهم الذي هم فيه.

وقد عبّر عن ذلك أديب العربية مصطفى صادق الرافعي ـ رحمه الله ـ بقوله: «والسعادة في جملتها وتفصيلها أن يكون لك فكر غير مقيد بمعنى تتألم منه، ولا بمعنى تخاف منه، ولا بمعنى تحذر منه، والشقاء في جملته انحباس الفكر في معاني الألم والخوف والاضطراب»[1] .

وهل كان شقاء البشرية في تاريخها الطويل إلا بسبب التخبط الفكري والتصور البشري للإله والكون والحياة؟

الإسلام يصحح العلاقات :

وهل سعدت البشرية يومًا من الأيام سعادتها بالإسلام حين أزال عن العقول الضلالات، وحجب الخرافات، وصحح العلاقة في ذهن الإنسان تجاه الله والكون والحياة؟ فعاش الناس أطيب الأيام؛ لأن فكرهم استقام على الحق، وقصد إلى الرشد، فانجلت عن العقول غياهب الظلام، فشعر الناس بالحرية، وذاقوا طعم الأمان، وزالت عن نفوسهم الأوهام، فلا شقاء، ولا ضلال، ولا غيّ ولا فساد، فقد استبان الطريق أمام السائرين، وظهر الضوء للسالكين، وبَعُدَ الناسُ عن الضلالات والخرافات التي تجعل من أصحابها أسارى يتخبطون في الظلمات وهم يظنون ـ إلى حين ـ أنهم يعيشون في رائعة النهار، ولكن سرعان ما يدرك هؤلاء أنهم المُعَذَّبُون السجناء، فيشعرون باليأس والتعب، والضيق والعذاب والكرب.

وأشد سجون الحياة فكرة خائبة، يسجنُ الحي فيها،لا هو مستطيع أن يدعها، ولا هو قادر أن يحققها، فهذا يمتد شقاؤه ما يمتد، ولا يزال كأنه على أوله لا يتقدم إلى نهايته، ويتألم ما يتألم، ولا تزال تشعره الحياة أن كل ما فات من العذاب إنما هو بدء العذاب»[2] .

(١)وحي القلم، للرافعي (١/ ١٧٨)، دار الفكر العربي، د. ت .
(٢)وحي القلم، للرافعي (١/ ١٧٨) دار الفكر العربي، د. ت .

حدد الإسلام للإنسان الصلة بالله والكون والحياة فاستيقظ من غفوته، وتنبه من غفلته، وشعر بسعادته، ثم أقام حياته على العدل، وأشاع في جنبات نفسه الكرامة وهو الخليفة عن الله في عمارة الكون، واستمرار الحياة، وأسقط الإسلام من عقول المسلمين كل فكرة تقوم على العصبية أو العنصرية للجنس أو للون أو للأرض، أو لقومية من القوميات، أو عشيرة من العشائر، فكل هذا أمام فكر الإسلام هراء وغثاء يرمي به سيل الفكر الإسلامي الصحيح القائم على الحق، يرمي به بعيدًا عن مجرى الإسلام، ومسار الإيمان، ليلتقطه الأشقياء، فتسوء حياتهم، وتسود به عند الله وجوههم، يوم تبيض وجوهٌ وتسود وجوه.

وهل كان أبو جهل إلا أسير الضلالة ، وصريع العصبية والخرافة يوم أصر على عدم الإيمان وتمسك بالكفر والعصيان، حينما أعلن أنهم وبني عبد مناف تنازعوا الشرف، حتى إذا ما اقتربوا منهم قالوا: منا نبي يُوحى إليه!.

وإليك ما أعلنه :

قال: « أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه»[1] .

أرأيتَ كيف طغت فكرة العصبية فأضلت رجلاً كان يُعَدُّ من أصحاب الرأي، فسجن نفسه في فكرته وشقي بها في الدنيا، ويشقى بها في الآخرة، وهكذا أسرى الظلمات والضلالات والخرافات، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

(١)السيرة النبوية، لابن هشام (١/ ١٩٢)، مكتبة الرحاب، ط ١ ، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

(٢٢)
الحـركـة المستـمـرة لا يعوقـهـا شـيء

العـزة في التواضـع :

مسؤولية الإنسان عن غيره ممن يتولى أمورهم مقررة شرعًا، لا يمنع شيء عـن القيـام بها، بل إن هذه المسؤولية تتضخم، وتزداد كلما ازداد الإنسان من المناصب أو الأموال أو البنين والحفدة، أو غير ذلك من نعم الله.

وقد كان عمر بـن الخطـاب رضي الله عنه وهـو خليفـة يـرى أنـه مـسؤول أمـام الله حتـى عـن عثرات الدواب في أي بقعة مـن بقـاع الدولـة الإسـلامية، فـضلاً عـن مـسؤوليته المقـررة والمؤكدة عن البشر، في كـل أمـر يتـصل بـراحتهم، وإيـصال الحقـوق إلـيهم، والـبر بهـم، وإبعاد التهلكـة عنهـم، ورفـع الإصر عن كواهلهم، فكان هو والمسؤولون معـه يعملـون كل ما يستطيعون ليحققوا أوامر الله في خدمة الرعية، لا يحول دون ذلك كـبر أو أنفـة أو استعلاء في الأرض بغير الحق.

وهكذا سار هذه السيرة كل مسؤول أدرك واجبه وعرف دينه، فعلم أن عزة المسؤول في تواضعه للرعية، وأن شرفه في خدمتهم، وتحقيـق مطـالبهم العادلـة التـي أمـر الله بهـا، وهذا واجـب عـلى القـادة الـذين يقــودون أي عمـل، فـلا يجــدون غـضاضة في خدمـة الأتباع، ولا يجدون حرجًا في راحـة الأشياع، بل يجدون لذة وحبًا وشرفًا.

وقد قيل: «أربعة لا يأنف الشريف منهن وإن كان أميرًا:

قيامه من مجلسه لأبيه.

وخدمته للعالم يتعلم منه.

والسؤال عما لا يعلم.

وخدمته للضيف »[1].

الأقويـاء في خدمـة الأمـة :

---

(١)تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة (ص ١١٠).

ولقد كان العلماء العاملون الذين حباهم الله فهمًا وعلمًا، وذكاءً وفطنة يعملون في خدمة الضعفاء، ويقدمون لهم ما يرفع من أقدارهم، ويُدْخِلُ السرورَ على نفوسهم، وهم حين يفعلون ذلك يشعرون بالضعف عن القيام بكل ما يجب لعجزهم وقلة حيلتهم، فيتجهون إلى ربهم ليعلنوا أمامه سبحانه عن عجزهم.

هذا هو الإمام هشام التميمي ـ من علماء القرن الثالث ـ يقف بالمكتب، ثم يقول للمؤدِّب: أخرج لي مَنْ عندك مِنَ الأيتام، فيشتري لهم الفاكهة ويطعمهم، ويدهن رؤوسهم، ويُقَبِّل بين أعينهم، ويقول: ما عسى أن أصنع لكم؟!، اللهم هذا الجَهْدُ مني!! [1].

فلا استنكاف، ولا استكبار، ولا علو، ولا اغترار، ولكنه تواضع القادة، الذين يدركون نعم الله عليهم وفضله بهم، فلا يضنون على عبيد الله وخلقه بما حباهم الله وأعطاهم، بل يعملون ويتحركون في خدمة الأتباع، لا يمنعهم علمهم من الأخذ بيد المحتاجين، ولا يمنعهم منصبهم من العمل بين المساكين والفقراء والمستضعفين، وإذا كان الضعيف ـ أيًا كان ضعفه أمير الركب، فإن القوي ـ أي كان مظهر قوته ـ خادم الركب، والحارس له، والعامل على استمرار مسيرته، وإنجاح مهمته، ولا يتأتَّى ذلك بالعلو والاستكبار، ولكنه يتحقق بالتواضع والعمل والحركة باستمرار.

ليس للدعوة مكان محدد :

وهذا الاستمرار لا يحده المكان، كما برهن على ذلك الشيخ عبدالحميد بن باديس ـ رئيس جمعية العلماء في الجزائر حين قال له المعتمد الفرنسي: إما أن تُقلع عن هذه الأفكار وإلا أغلقنا المسجد الذي تنفث منه سمومكم ضدنا.

فأجابه الشيخ ـ رحمه الله : إنك يا مسيو الحاكم لن تستطيع ذلك.

فاستشاط غضبًا وقال: كيف لا أستطيع ذلك؟! شرطي واحد أُرْسِلُهُ فيغلق المسجد ويسدل الستار إلى الأبد.

فقال الشيخ : نعم تستطيع وأكثر من ذلك، ولكن لا تستطيع منعي من تعليم أبناء

(١) آداب المعلمين، ص ٣٦ .

جلدتي ونصحهم، فأنا إن كنتُ في عُرس علّمتُ المحتفلين، وإن كنتُ في مأتم وعظتُ المعزين، أو في القطار علَّمْتُ المسافرين، أو في السجن أرشدتُ المسجونين، فأنا مُعَلِّم مرشد في جميع الميادين، فالأمَّة استجابت لداعي الله الذي يحييها، وخيرٌ لكم ألا تتعرضوا لها في دينها ولغتها[١]، وهذا نهج أمة محمد ﷺ، فالإمام أحمد ـ رحمه الله ـ يقول: «كنتُ أصلي بأهل السجن وأنا مُقَيَّد».

فالتضييق ـ وإن زاد ـ غير مانع من الحركة الإيجابية في الدعوة إلى الله، فإرشاد الناس إلى دين الله، والعمل على إخراجهم من الظلمات إلى النور ليس في حاجة إلى مكان مهيأ، تزال منه السدود، وتُرفَع القيود، فكل مكان يصلح للدعوة، وكل إنسان يحمل من نور الدين عليه أن يضيء به للسائرين، حتى ينقذهم من التخبط في ظلمات الحياة.

---

(١) مجلة المجتمع الكويتية، عدد رقم ١٤٣، شهر مارس عام ١٩٧٣م.

الخاتمة

وبعد.. يا أخي المؤمن..

فقد شعرنا بالعزة والرفعة، ونحن نلقي بصيصًا من الضوء على جوانب من هذا الدين، الذي استمسك به الأولون، فجمعهم بعد فرقة، وقواهم بعد ضعف، وأغناهم بعد فقر، وصنع منهم أمة سادت الناس، وقادت ركب البشرية قرونًا وقرونًا، تعز على النسيان، وتبقى ذكراها ما بقي الملوان.

وإنَّ المسلمين لتعلو جباههم، وتتطاول بين الناس أعناقهم، وهم يعلنون ـ في اعتزازٍ وفخر ـ أن دستورهم ومنهجهم وضعه لهم رب العالمين، وبيَّنه الرسول الكريم، فهل بين دساتير الأرض ومناهج البشر ما يساوي هذا الدستور أو يقترب من هذا المنهج؟ شتان شتان.

وإذا كنا ـ أخي القارئ ـ قد شعرنا بهذه العزة ـ عزة المسلمين، وقوة المؤمنين ـ ونحن نسترجع في ذاكرتنا، وتجري على ألسنتنا بعض جوانب الدين، فما بالك لو صارت كل جوانب هذا الدين واقعًا متحققًا يعيش المسلمون في ظلاله، ويسعون في الأرض بضيائه وبهائه؟

ولن يكون ذلك بغير مشاركتك ومعاونتك، حين تأخذ نفسك بمنهج الله، فيصير لك دليلُ حياة تعز به في الدنيا، وتسعد به في الآخرة.

ونرجو أن تكون هذه الجوانب ـ التي قدمناها إليك من الدين ـ بابًا يوصلك إلى معالمه، وطريقًا تلتقي عليه الأرواح المتآلفة التي تحمل منهج الله وتتخذه لها دستورًا تطبقه وتعيش به، وتعيش له، وتجاهد في سبيله، وتحتكم إليه، وتحقق لنفسها به العزة والسعادة والرضوان.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

ثبت بأهم المراجع

١ ـ آداب المعلمين .

٢ ـ إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي ، طبعة دار الحديث .

٣ ـ أخبار القضاة ، لوكيع، المكتبة التجارية الكبرى، مصر .

٤ ـ البداية والنهاية، ابن كثير، دار الكتب العلمية.

٥ ـ البيان والتبيين، الجاحظ، دار صعب، بيروت، طبعة ١٩٦٨م.

٦ ـ تاريخ الإسلام، الذهبي، دار الكتاب العربي.

٧ ـ تذكرة الحفاظ ، الذهبي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٨ ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك، القاضي عياض.

٩ ـ تهذيب الأسماء واللغات.

١٠ ـ الحسن البصري، لابن الجوزي.

١١ ـ الدولة الأموية، د.الصلابي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

١٢ ـ ذيل طبقات الحنابلة.

١٣ ـ الزهد، الحسن البصري.

١٤ ـ روائع البيان تفسير آيات الأحكام.

١٥ ـ سير أعلام النبلاء، الذهبي، مؤسسة الرسالة ، بيروت.

١٦ ـ السيرة النبوية، ابن هشام، مكتبة الرحاب، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

١٧ ـ طبقات الحنابلة.

١٨ ـ طبقات الشافعية، السبكي.

١٩ ـ العقد الفريد، ابن عبد ربه .

٢٠ ـ الفتح الرباني والفيض الرحماني، عبدالقادر الجيلاني.

٢١ ـ الفوائد، ابن القيم.

٢٢ ـ في ظلال القرآن، الأستاذ سيد قطب، دار الشروق.

٢٣ ـ القاموس المحيط، الفيروزآبادي.

٢٤ ـ مجلة المجتمع الكويتية.

٢٥ ـ مجموعة الرسائل، الإمام الشهيد حسن البنا، دار الشهاب.

٢٦ ـ مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني.

٢٧ ـ مذكرات الدعوة والداعية، الإمام الشهيد حسن البنا، دار التوزيع والنشر.

٢٨ ـ المغني، ابن قدامة، دار الفكر، بيروت.

٢٩ ـ نزهة الألباء.

٣٠ ـ من وحي القلم، الرافعي، دار الكتاب العربي.

٣١ ـ وفيات الأعيان ، ابن خلكان، دار صادر، بيروت.

الفهرس

هذا الكتاب

آثرنا هذا الاسم لمَا كان في المحراب من بشرى غيَّرت واقعًا ،
ما كان يظن أحد أن يتغير ولا أن يتبدل.
تحدثنا فيه عن بعض جوانب الإسلام نُذكر بها ،ونبين معالمها وطريقها ،
فقد يظن بعض المسلمين أن مثل هذه الأمور لا صلة للإسلام بها ، فما
للإسلام والوقت؟ وما للإسلام والأناة؟ وما للإسلام والجرائم المعاصرة المتغلغلة
حتى بين المسلمين أنفسهم؟
والإسلام دينٌ شامل ،وقد جُلْنا في بساتينه ،فأخذنا من كل بستان زهرة ،ومن
كل روضة ثمرة ، لنقدمها لإخواننا المسلمين ينتفعون بها وينفعون.
وقد قسمنا الكتاب إلى دروس ،كل درس لا يزيد في قراءته على خمس عشرة
دقيقة تقريبًا ؛ ليستطيع إمام المسجد أن يقرأها على المصلين ،ويستطيع المربي أن
يقرأ منها لدقائق معدودة على تلاميذه في الفصل ،ويستطيع الأب في جلسة
قصيرة مع أبنائه أن يقرأ منها ،ويوضح بعض جوانب الإسلام فيها لبنيه ،
وتستطيع الأم أن تستعين بها في تربية أبنائها ،وتنشئهم على الجد
ومعالي الأمور.

المؤلفان

مؤسسة السماحة للطباعة والنشر والتوزيع
الكويت - المنطقة التجارية رقم ٩ بلوك ١ مكتب ١٢.
E-mail: alsamaha_laib@gmail.com